وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم الفلسفة

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر بعنوان:

الأسس الفلسفية للنظرية التطورية عند شبلي شميل

من إعداد الطلبة:
محمودي هناء
محجوب السعيد الدين

إشراف الأستاذ الدكتور البروفيسور:
مراجي رابح

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة
الحاج علي كمال	أستاذ محاضر	مناقشا رئيسيا	جامعة 8 ماي 1945 – قالمة–
مراجي رابح	أستاذ محاضر	مشرفا ومقررا	جامعة 8 ماي 1945 – قالمة–
كحول مسعودي	أستاذ محاضر	مناقشا	جامعة 8 ماي 1945 – قالمة–

السنة الجامعية: 2022/2021

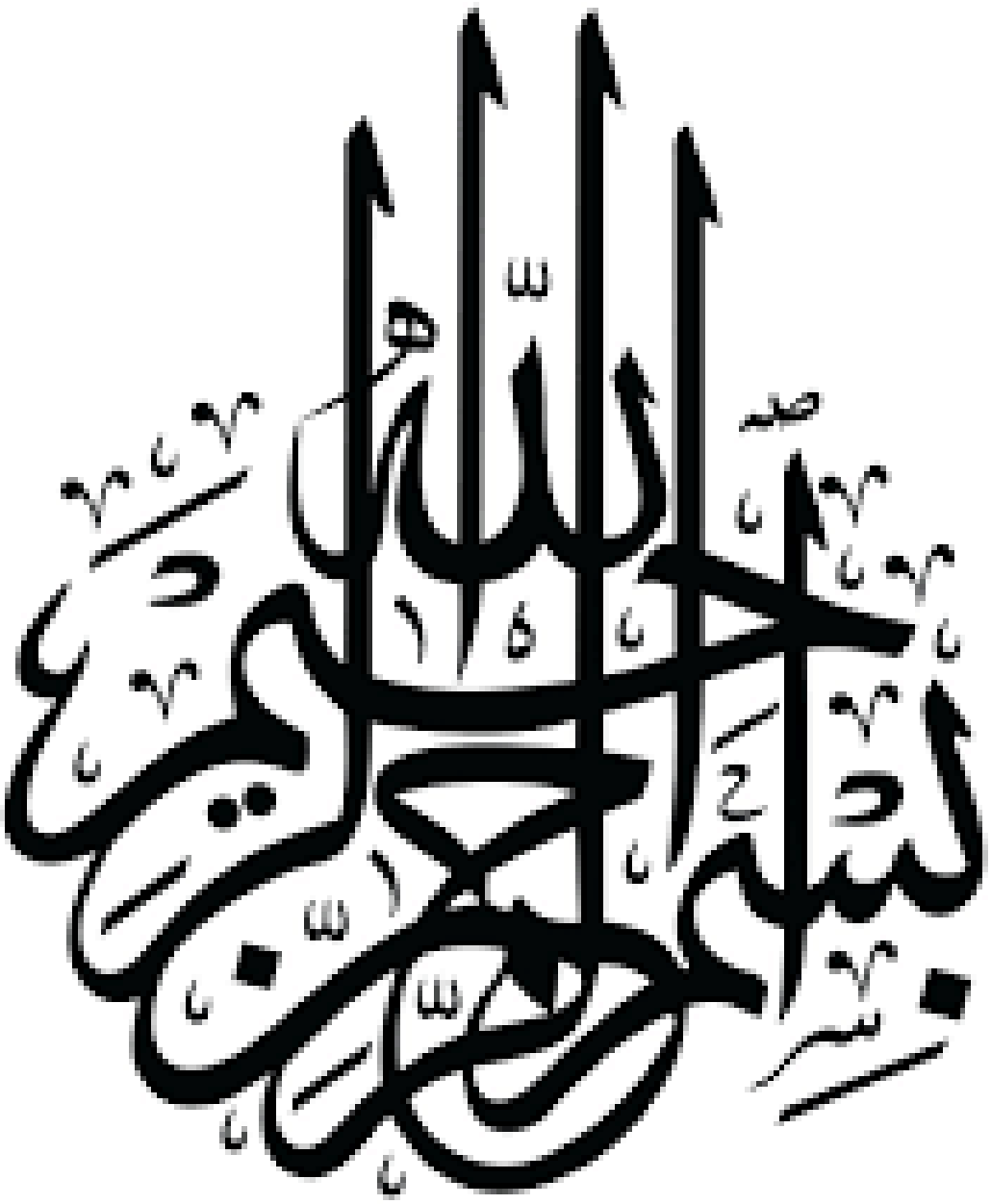
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

قال الله تعالى: و لإن شكرتم لأزيدنكم صدق الله العظيم.

نشكر ونحمد الله عز وجل الذي وفقنا لإتمام هذا البحث العلمي، والذي منحنا الصحة والعافية والإرادة والعزيمة. فالحمد لله حمدا كثيرا.

نتقدم بجزيل الشكر و خالص الامتنان إلى استاذنا الكريم مراجي رابح الذي شرفنا بتأطيره.

كما نشكر جميع اساتذتنا الذين لم يبخلوا علينا بمساعدتهم وتوجيهاتهم.

و نخص بالشكر و الامتنان كافة افراد اسرتنا كل باسمه و صفته على وقوفهم بجانبنا و تشجيعهم لنا طيلة مشوارنا الدراسي.

ولا يفوتنا ان نشكر كل من مد لنا يد العون ولو بالكلمة، و العرفان لقسم الفلسفة أساتذة و اداريين.

ونتقدم كذلك بالشكر الى لجنة المناقشة على مناقشة هذه المذكرة

وإلى كل من ساعدنا من قريب أو بعيد.

نقول له شكرا.

إهداء

أهدي مشروع التخرج هذا لكم أحبتي و إلى كل من كان لي عونا و سندا في مشواري

إلى الوالدين الكريمين الذين تعبا و اجتهدا على بذل كل الجهود لكي أواصل مسيرة تعليمي

إلى أخواتي و إخوتي الذين هم سندا و عزوة لي

إلى أصدقائي و أخص لمياء و كريم اللذين لم يتقاعسا في تقديم يد العون لي

إلى قطي الذي سهر معي الليالي

إهداء

احمد الله واشكره على انه منّ عليّ بهذه النعمة وهي نعمة العلم وانا في سني هذه.

إلى زوجتي العزيزة الغالية التي ساعدتني كثيرا ووقفت بجانبي في اشد الأوقات.

وإلى أطفالي الأعزاء محمد بهاء الدين وهيام قرة عيني.

وإلى والدي وإخوتي واخواتي كل باسمه وصفته.

وإلى كل من وقف بجانبي وساعدني ومد لي يد العون.

و الحمد لله رب العالمين

المقدمة

مقدمة:

يتناول موضوع بحثنا الذي نحن بصدد تقديمه فلسفة التطور عند شبلي شميل أنموذجاو الذي يتضمن إطارا عاما متمثلا في فلسفة التطور أما مجاله الخاص فلسفة التطور من وجهة نظر شبلي شميل، حيث تعتبر فلسفة التطورنظرية تمثل تحليلا لغويا وفلسفيا وفكريا جميلا لظهور الحياة عبر تطور وظيفي للكائنات الحية مع الزمن ينقلها إلى كائنات أخربوتعتبر أفضل النظريات التي تم دعمها تاريخيا إذ يزعم وجود مجموعة من الأدلة العلمية التي تدعم هذه النظرية، مثل :علم الحفريات، وعلم الوراثة،والجيولوجية، وعلم الأحياء التطوري، ويعتبر تشارلز داروين صاحب هذه النظرية الغربية.

ووفقا لهذا المعطى المعرفي نجد أن فلسفة التطور لقيت رواجا واهتماما من قبل عديد من الفلاسفة والمفكرين في القرن الراهن و منذ منتصف القرن الماضي حتى أضحت محورا رئيسيا تدور حوله تيارات الفكر المعاصر بالقبول أو الرفض، خاصة بعد للجهود التي بذلها الفلاسفة و العلماء لتطوير و تعميق هذه الفكرة ذاتها، حيث نجدها تسير على الفكر الفلسفي و مذاهبه في هذا العصر، و لعل من أهم نتائج هذه الفكرة هو المساعدة على اشتداد الصلة بين العلم المعاصر و الفلسفة من جهة أخرى و من بين المفكرين اللذين جذبتهم فكرة التطور الداروينية المفكر العربي المعاصر **شبليشميل** الذيقد أسهم في دراسة المواضيع المرتبطة بهذا الجانب حيث بحث في أصل الأنواع و كيف كان الظهور الأول للإنسان و الصفات المشتركة بينه و بين الأنواع الأخرى، و أيضا من أهم المواضيع التي عالجها فكرة الانتخاب الطبيعي الذي يعتبر الفكرة الأساسية في النظرية التطورية الداروينية التي تقوم بدراسة تطور الكائنات الحية عبر الزمن و ذلك بانتخاب الطبيعة لها، حيث ينجو و يتطور الأقوى و يتلاشى الأضعف، و فضلا عن ذلك فقد عالج الشميلموضوع العلم الطبيعي و الدين و العلاقة بينهما و كيف نشأ الدين، و أيضا الكشف عن ملامح المادية و الاشتراكية، و كذلك تطرق إلى موضوع الرجل و المرأة و هل يستويان؟ ومن أهم ما قدمه شبلي شميل شرحه لتشارلز داروين عبر مذهب بخنر، حيث تطرق إلى مبادئ هذه النظرية محاولا إثبات صحتها، كما تحدث أيضا عن علم الحيوان وكيف أن أصل الحيوانات منبثق من جوهر واحد.

وإن الأسباب والدوافع التي جعلتنا نختار هذا الموضوع تتمثل في العوامل الآتية:

رغبتنا و اهتمامنا بالفكر الغربي التطوري عامة و الفكر الفلسفي منه خاصة، و كون فلسفة التطور تشكل موضوعا مفتوحا يحتاج إلى الكثير من الأبحاث و ذلك بما تتضمنه من إشكاليات، و في نفس الوقت هي موضوع نادر لا توجد له دراسات سابقة في جامعتنا مع أنه هناك دراسات حول فلسفة التطور،وأيضا

مكانة نظرية التطور في مجتمعنا و ثقافتنا و انعدام وجود دراسات سابقة حول المفكر شبلي شميل و موقفه من نظرية التطور، حيث دافع عن نظرية التطور من الرافضين لها و اللذين نسبوا لها تهمة الإلحاد و تشويه صورة الدين و هو أمر يدعو إلى بذل كل هذا المجهود من أجل مشاركة العالم في البحث العلمي و المساهمة و لو بقليل في إثرائه، و كذلك ما جعلنا نختار هذا الموضوع هو فضولنا نحوه و ما حفزنا إليه هو مطالعتنا للمؤلفات في نظرية التطور عامة و شبلي شميل خاصة.

أما إشكالية البحثفتتعلق في إطارها العام بفلسفة التطور وإطارها الخاص من خلال شبلي شميلالذي كان أول من تبنى التيار المادي في شكله العلمي التطوري، في عصر كان يسوده التيار الديني الميتافيزيقي الذي دخل في صراع معه، ومما تقدم عرضه نطرح الإشكال التالي:

ماهي المبادئ أو المنطلقات أو القواعد التي اعتمد عليها شبلي شميل من اجل التجسيد لنظرية التطور في الفكر العربي المعاصر لتبسيطها وايصالها إلى عامة الناس؟

وعلى ضوء هذه الإشكالية تتفرع العديد من المشكلات الثانوية يأتي في مقدمتها: من هو شبلي شميل وما هو منهجه المادي وإلى أي مدى كان فكره المادي انعكاسا لروح عصره؟ وماهي أهم رؤاه ومواقفه الفلسفية حول نظرية النشوء والارتقاء وحول العلم الطبيعي؟ في مجالات الحياة من سياسة واقتصاد واجتماع وتعليم،لأن فكره كل متكامل؟ وفيما تتمحور أهم الانتقادات والتأييدات التي وجهت إلى شبلي شميل؟

و قد اعتمدنا في معالجة هذا الموضوع على مناهج متعددة، منها المنهج التحليلي وذلك في رسم و فحص مضامينه إلى أهم المصادر ذات الصلة بالموضوع، بالإضافة إلى المنهج التاريخي كون المؤلف شبلي شميل سرد لنا أحداث تاريخية يستشهد بها، كذلك المنهج العلمي الذي هو أساس نظرية التطور.

أما عن معيقات البحث فقد واجهتنا الكثير من الصعوبات التي عرقلت سير هذا البحث، في مقدمتها قلت المراجع، إضافة إلى ندرت الدراسات السابقة للمفكر شبلي شميل مما دفع بنا إلى توظيف المصادر لعدم وجود مراجع خاصة بفلسفة التطور و خاصة مؤلفات شبلي شميل.

كما استعنا في هذه الدراسة من مصادر ومراجع مختلفة منها المعاجم الفلسفية المعروفة كمعجم أندري لالاند وجميل صليبا ومصادر خاصة بالباحث شبلي شميل أهمها: شرحبخنرعلىمذهبداروين، الحقيقة، نظرية التطور وأصل الإنسان، فلسفة النشوء والارتقاء، مباحث علمية واجتماعية، آراء الدكتور شبلي شميل، المجموعة.

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على خطة منهجية تمثلت في ثلاثة فصول و خاتمة، بحيث عرفنا في المقدمة بالموضوع و أهميته و ذكرنا الأسباب التي دفعتنا لدراسته و طرحنا فيه إشكالية البحث الأساسية و بينا المناهج التي اعتمدنا عليها في معالجة هذه الإشكالية، كما أشرنا إلى الصعوبات التي واجهتنا و إلى المصادر التي كانت لنا عونا مساعدا في انجاز هذا البحث.

حيث كان الفصل الأول معنونا بحياة شبلي شميل وآثاره، حيث تناولنا في المبحث الأول حياته محددين أهم المحطات التي توقف فيها فأثرت في فكره وعرضنا أبرز مؤلفاته، لنختم هذا الفصل بأهم الأفكار التي ناد بها شبلي الشميل وركائز فلسفته.

أما في الفصل الثاني فموسوما بنظرية النشوء و الارتقاء، حيث تناولنا في المبحث الأول نظرة عامة حول الباحث الانكليزي تشارلز داروين، و المبحث الثاني بعنوان آراؤه في العالم الطبيعي، حيث تحدثنا حول نظرية التطور و كيف شرحها شميل عن طريق التطرق لأصل الأنواع و الأجناس و كيفية ارتقائها و ذلك عن طريق تنازع البقاء و الانتخاب الطبيعي و كيف أن الكائنات الحية تطورت و وصلت إلى ما آلت إليه الآن، و كمبحث ثالث و أخير كان بعنوان آراؤه الفلسفية موضحين فيه أهم الأفكار الفلسفية لشبلي شميل.

ثم عرجنا إلى الفصل الثالث الذي تناولنا فيه تقييما لآراء الدكتور شبلي الشميلو قد تضمن ثلاث عناصر، حيث المبحث الأول بعنوان مغالطات نظرية التطور الشميلية حيث ذكرنا فيه التناقضات التي وقع فيها شبلي

شميل في فلسفته، أما المبحث الثاني فكان فيه أهم الآراء المعارضة لفكره التطوري و ختمنابالآراء المؤيدة للدكتور شبلي شميل.

الفصل الأول:

شبلي شميل فلسفته وحياته.

أولا: حياته.

ثانيا: آثاره.

ثالثا: فلسفته.

تمهيد للفصل:

من أهم المفكرين العرب المعاصرين الذين أولوا اهتمام كبير بنظرية التطور هو الدكتور شبلي شميل، الذي يعتبر من أبرز المؤلفين الذين كرسوا حياتهم للبحث و الكشف عن الحقيقة، متبعا في ذلك المنهج الداروينى العلمي الذي انتهجه في بحثه والذي يظهر ذلك جليا في فلسفته.

ومن هذا المنطلق يمكن طرح التساؤلات الآتية :

كيف تأثر شميل بالنظرية الداروينية؟، وكيف تشكلت نظرته وفلسفته في جميع المجالات؟،وما هي أهم مؤلفاته التي ساهمت في توضيح أفكاره؟

أولا: حياته

❖ **حياته:**

يعد شبلي شميل أحد رواد النهضة في العالم العربي الذين أخذوا من المذهب العلمي التطوري منهجا لهم في دراسة مشكلات الوطن العربي في عصرهم فقد أخذ شبلي شميل على عاتقه مهمة تغيير العالم العربي من خلال أعماله المنشورة سواء كانت كتب أو مقالات في مجلات أو يوميات، و من هنا حاول تنوير العقول الشرقية_العربية_ من خلال طرح أهم مشكلات عصره متجاوزا العقبات بتسليط الضوء عليها و العمل على إزالتها.

وقد اختلف المؤرخون و كتاب السير الأحدث عن التاريخ الصحيح لمولد شبلي شميل كأمثال سريكس، كحالة، داغر، غراف فيحددون مولده سنة 1860م و لكن اعتبر هذا التاريخ مرفوض لأنه بحسب صروف لأن شبلي شميل كان قد تسجل في الجامعة الأمريكية في السنة الثانية من تاريخ تأسيسها أي سنة 1867م و يؤكد أن شميل كان عمره حوالي 17 سنة حين انتسب إلى كلية الطب، يقول شميل نفسه في كتاب المجموعة إن عمره إحدى عشرة سنة أو اثنتا عشر سنة حين كان طالبا في مدرسة عين طورة خلال السنة الدراسية 18863/1860 مما يسمح بتحديد تاريخ ميلاده حوالي سنة 1850م، و من جهة أخرى يضيف لوصرف أن هذا التاريخ قد أكدته شهادة أساتذة سابقين في الجامعة الأمريكية خصوصا الأستاذ قربان و الدكتور إدوارد فان ديك[1] .

شبلي إبراهيم شميل، طبيب، كاتب، أديب، مفكر و مصلح اجتماعي، و لد في قرية كفر شيما بلبنان، نشأ في بيت علم و أدب، تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة القرية[2] ، و درس في مدرسة المرسلين الأمريكان ببيروت، و أخذ اللغة العربية و الفقه عن محي الدين اليافي، و قصد بلاد الإنجليز فاشتغل بالتجارة فم تركها و جاء مصر و اختار المحاماة[3].

❖ **بيئة شميل الفكرية:**

ساهمت عوامل عدة في توجيه شميل نحو الحياة الفكرية، أولا البيئة المثقفة في كفر شيما و كذالك تأثير البيئة العائلية التي كانت حاسمة لشميل، فقد كان الشميل من عائلة ذوي جدارة كبيرة، فوالده إبراهيم كان يعتبر من

[1] زوق مصباح، سيرة شبلي شميل و أبرزانجازاته، مؤسسة الفكر اللبناني، جامعة السيدة لويزة، لبنان، ص:1.

[2] موقع الفراشة، لتصنيف العرب، متاح على الخط bettefly.com بتاريخ 2022/05/14.

[3] عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج3، مؤسسة الرسالة، ص:94.

الوجهاء المتعلمين في البلد و إخوتهم وهم أكبر منه سننا سبقوه في المهنة الفكرية و على درب الشهرة فكانوا بالنسبة إليه القدوة و ما كان عليه سوى تقليدهم و هكذا يكتب صروف، ولد شميل في بيت لبناني معروف بعلمه و فضائله إبن هكذا والده، محاط بهؤلاء الإخوة ليس بغرابة أن يكون قد طور مهارات علمية و فلسفية جامعا الثقافة و الميل إلى العلوم الطبيعية و الأخلاقية[1]، و كذلك عاملين آخرين يشير إليهما لوصرف، الأولى هو الأصل اللبناني فهو يجد لدى هذا الشعب صفات تساعده كالطاقة و النشاط و الذكاء و الحركة المتواصلة و الميل إلى المغامرات الخيالية و المعاشة التي يرافقها حس عملي واضح للغاية، و العامل الثاني الذي ساهم أيضا في تدريب الشميل هو دون شك الطبيعة القاسية في لبنان قممه العالية و البيضاء و العارية بوجه بحر رمادي أو الزهري اللون التي باستطاعتها أن توقظ عند البعض الميل إلى المغامرة و عند البعض الآخر الميل إلى أحلام اليقظة و عند الجميع الرغبة في الفرار إلى البعيد في الحقيقة أو في الخيال.

و العامل الأخير و الذي قد يكون أيضا وجه شبلي شميل إلى الحياة الفكرية و العملية هو الجو الثقافي العام الذي كان سائدا في مصر و في لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فالنهضة الأدبية و العلمية التي بدأت في مصر و لبنان كانت قد وصلت ذروتها في أيام شميل فقد ظهرت في جميع المجالات الثقافية تقريبا[2].

درس الشميل في كلية الطب حيث انتسب إليها في عمر السابعة عشر و درس على يد ثلاثة أطباء هم الدكاترة: كوربي لوس فان ديك، جان ورتبيت، جورج بوست، فتحصل على مستوى عالي من التعليم سمح له بأن يحصل على تدريب طبي قوي و سيساهم في نجاحه في ممارسة هذه المهنة هذا النجاح الذي أكده بالإجماع كتاب سيرته[3]، و في حوالي سنة1875م سافر شميل إلى أوروبا بعد تخرجه من كلية الطب، حيث كانت هذه الرحلة مفصلية في تطور فكره، وهو قد أقام في باريس لمدة سنتين و كذلك أقام لفترة تزيد عن ستة أشهر في ليفر بول عند أخيه غير الشقيق بشارة. هدف تلك الرحلة كان مبدئيا أن يتخصص في باريس في الدراسات الطبية و عند عودته منها ذهب إلى اسطنبول للتقدم لامتحان الطب النهائي الذي يخوله ممارسة الطب، ثم عاد إلى قريته الأم لإمضاء بعض الوقت قبل توجهه إلى واد التبل عن عمر خمسة و عشرون سنة حيث توجه إلى أخيه ملحم غير الشقيق في الإسكندرية الممثل لوكالة الإخوة شميل، فقد كرس حوالي الشهر عند العائلة قبل العودة إلى الإسكندرية التي لم يلبث فيها مطولا لأسباب بقيت غامضة، بعد ذلك استقر في طنطا التي أمضى

[1] زوق مصباح، سيرة شبلي شميل و أبرز انجازاته، مرجع سابق، ص:4.

[2] المرجع نفسه، ص:5.

[3] المرجع نفسه، ص:7.

فيها خمسة سنوات التي كانت الأهم في حياته، لكن بعد الاضطرابات التي نشأت نتيجة التمردالذي أشعله العرابي سنة 1882م توجه الريفيون نحو المدن فاضطر أمين عائلته إلى ترك هذه المنطقة ليستقروا في القاهرة، و بعد وقت قصير 1885م لحق بهم شميل و استقر هناك حتى آخر حياته[1].

[1] زوق مصباح، سيرة شبلي شميل و أبرز انجازاته، المرجع السابق، ص:12.

ثانيا: آثاره.

يعد شبلي شميل من المفكرين اللامعين العرب، له عدة مؤلفات خاصة في مجال الاشتراكية العربية و ترجمة كتب الفكر الاشتراكي الماركسي و كذلك ترجمة الأفكار الداروينية منها شرح بخنر على مذهب داروين و بعض الكتب الأخرى وهي الكتب الآتية:

1. فلسفة النشوء والارتقاء.

نبذة عن الكتاب:

تاريخ النشر: 01/01/1993.

دار النشر:دار مارون عبود.

يعد هذا الكتاب سفر من أسفار النهضة، بل هو إحدى حلقات تلك السلسلة، إنه يحمل في طياته الكثير من سمات النهضة، و هو يشمل اولا على مقالات من مذهب داروين من أصل الأنواع و تحولها، هذا و قد كانت قد نشرت باللغة العربية سنة 1885 تحت عنوان شرح بخنر على مذهب دارون، و ثانيا يشتمل على متن كتاب الحقيقة المطبوع أولا سنة 1885 و المتضمن على مباحث لتأييد هذا المذهب ردا على اللذين تعرضوا لنفيه على أثر نشر الطبعة الأولى من الشرح المذكور، ثالثا يتضمن مباحث و مناقشات علمية في الحياة لإثبات الرأي المادي، رابعا يشتمل على مقدمتين إضافيتين إحداهما نشرت مع الطبعة الأولى من شرح بخنر ذلك الحين، و الثانية وضعت حديثا للطبعة الثانية هذه، و أخيرا اشتمل الكتاب على خاتمة لخصت ما تقدم حيث تم فيها النظر إلى علوم الإنسان و فلسفته من حيث نشوؤها و حقيقتها و تأثيرها في أخلاقها و أفكارها و أفعالها و سائر أحواله الاجتماعية في عهد التمدن اليوناني القديم إلى اليوم.[1]

2. مباحث علمية واجتماعية:

نبذة عن الكتاب:

تاريخ النشر: 01/01/1991.

دار النشر: دار نظير عبود.

يتضمن الكتاب مباحث مختلفة في موضوعات شتى واجتماعية، وكانت هذه المباحث قد كتبت في أزمان مختلفة ونشرت في صحف مختلفة أيضا، جمعها الدكتور "شبلي شميل" حينها في هذا الكتاب دون ترتيب زمني

[1] كتابات شبلي شميل، متاح على الخط www.noor-book.comK، بتاريخ : 38/03/2022، على الساعة: 21:50.

أو موضوعي، ويعتبر كتاب الدكتور شبلي هذا من أسفار النهضة، بل هو إحدى حلقات تلك السلسلة، إنه يحمل في طياته، الكثير من سمات النهضة.

يصف يعقوب صروف صاحب هذا السفر، بقوله: "وهذا النابغة العظيم هو زعيم فكرة التطور والنشوء والارتقاء في عالم الضاد. كان حاد الذهن، سريع التصور، نابغة في التعليل، ألمعيا في اكتشاف الحقائق، وكان أشهر الأطباء في التشخيص الطبي فكأنما يوحي إليه... وبلغت منه الفراسة أنه علل حوادث كثيرة بالاستهواء الذاتي قبل شيوع هذا العلم في أوروبا".

3. الحقيقة:

نبذة عن الكتاب:

تاريخ النشر:1884م.

في هذا الكتاب يناقش المؤلف دكتور "شبلي شميل" أصل الحياة والكائنات الحية، ويبرهن على صحة ما ذهب إليه داروين بالحقائق المؤيدة بالاختبارات العلمية، وموضحا أث قبول فرضية انحدار الأحياء من أصل واحد وتنوعهاوتطورها حسب نواميس الطبيعة لا يتعارض مع ما جاءت به الأديان أو مع وجود الخالق.[1]

4. كتابات سياسية و إصلاحية:

نبذة عن الكتاب:

تاريخ النشر: 1991م.

دار النشر: الحمراء.

تضم هذه المختارات من آراء الدكتور شبلي شميل في السياسة والإصلاح ونشر العلم والحرية، مجموعة من الكتابات والمقالات التي نشرت تبعا للظروف التي أملتها وانسجاما مع المواقف التي اتخذها صاحبها من شتى القضايا المتعلقة بموضوع الإصلاح وارتقاء العمران في ممالك السلطة العثمانية. وهذه المختارات التي يضمها هذا الكتاب تتسم بجرأة نادرة وصراحة غير مألوفة، وبراعة في التحليل، ومجاهرة بالدعوة إلى الإصلاح واليقظة ونبذ التعصب لمواكبة.

ركب التقدم.

[1] كتابات شبلي شميل، متاح على الخط www.noor-book.comK، المرجع السابق.

5. المأساة الكبرى:

نبذة عن الكتاب:

تاريخ النشر: 1915م.

المأساة الكبرى في الحروبِ هي أن القادة هم الذين يسعرون نارها، بينما يدفع الشباب الثمن من دمهم في ساحات القتال. هكذا كانت الحربُ العالمية الأولى؛ حيث اندفعَ العالمإلى أتون الصراع العبثيِ بسبب الطموحات التوسعية المجنونة لقيصرِ ألمانيا «غيليوم الثاني»، الذي طالما رددت جوقته على آذان الشعب الدعاوى العنصريةالبغيضة، وملأت رأس الأغلبية بأساطيرِ تفوق العرق الألماني، ووجوب سيادته على سائر الأمم من خلال القهرِ المقدسِ المسمى بالحرب. وما إن وقعت حادثة مقتل ولي عهد النمسا الحليفة حتى استغلها «غيليوم» ليعلن الحرب الكبرى التي ستنتهي، كما تنبأ المؤلف في هذه المسرحية التي كتبها قبل أن تضع هذه الحرب أوزارها، بهزيمة ألمانيا واستسلام قيصرها بعد أن أهلكت حماقته ملايين البشر.

6. كتاب آراء الدكتور شبلي شميل:

نبذة عن الكتاب:

تاريخ النشر: 1912.

«أغرب من آراء شميل» كادت تلك العبارة أن تذهب مثلًا بين الناس، بعدما أشاع النقاد عن الدكتور شبلي شميل غرابة أفكاره الدينية والاجتماعية، واتهموه بالإلحاد والخروج عن العرف والدين. ولما قرأ شميل ذلك الاستغراب على ألسنة الخاصَّة والعامَّة وفي أذهانهم، أراد أن يجمع آراءه المطعون عليها تلك في كتاب، ليتبين الجمهور حقيقتها دون لبس، ويكون لهم أن يقبلوها أو يرفضوها على بيِّنة. وفي هذا الكتاب يبرز اتجاه شميل لتطبيق فلسفة النشوء والارتقاء، ليس على الكائنات الحية فقط، وإنما على العمران والمجتمعات أيضًا باعتبارهما مقابلين للكائن الحي، يتنفسان وينموان، ويخضعان للعلم وقوانين الطبيعة. ومن هنا ينطلق لبسط رؤيته للأديان والعلوم والآداب، ويعقد مقارنات بين الأمم الناهضة الآخذة بأسباب الارتقاء، وتلك المرتكنة إلى الجهل وتحجرات الماضي.[1]

[1] كتابات شبلي شميل، متاح على الخط www.noor-book.comK، المرجع السابق.

7. شرح بخنر على مذهب دارون:

نبذة عن الكتاب:

تاريخ النشر: 1884م.

يرى شبلي شميل أن مذهب دارون هو من البساطة بمكان، بحيث يسهل إدراكه من عنوانه، ومؤداه أن الأنواع تتولَّد من أصول مشتركة، وتتحوَّل بواسطة الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء. وهذه الفكرة على بساطتها كانت ولا تزال صادمة بما يكفي، ومثيرة للكثير من الجدل بين العلماء والفلاسفة ورجال الدين، فضلًا عن العامَّة. لكن الداروينية لم تعدم المؤيدين والشارحين والمطوِّرين لها، وبينهم «لودويجبخنر»، الفيلسوف والطبيب الألماني الذي اعتنق الماديَة ورأى في فلسفة النشوء والارتقاء ترسيخًا لها. والمؤلِّف هنا يستعرض تلك الشروحات، ويتصرف فيها بما يقرِّبها للأذهان، ويقابل الحجَّة بالحجَّة، وصولًا إلى تقديم صورة متكاملة للحياة والإنسان كما يفسرهما دارون وبخنر، ومن سار على طريقهما من الماديين.[1]

[1] كتابات شبلي شميل، متاح على الخط www.noor-book.comK، المرجع السابق.

ثالثا: فلسفته.

❖ **النظرة العلمية، العلم الطبيعي:**

أولا، النظرة الاجتماعية (الاشتراكية):

كما أن الجسد يكون صالحا للبقاء عندما تعمل كل أجزاءه بتعاون هكذا يقوم المجتمع بعمله على أحسن وجه عندما تعمل أجزاؤه معا في سبيل خير المجتمع، فالتعاون ناموس المجتمع[1].

هذا ما قاله الشميل مؤكداً على أهمية الحفاظ على بقاء الجسد وكذلك المجتمع، فعندما يتعاون أبناء المجتمع الواحد يمكن للأمة أن تنهض، فبالتعاون قوة وقد جعله الشميّل قانون المجتمع الأعلى، حيث تتمكن الرعية بقوّته هذه من التخلص من الحكم الاستبدادي، وسيطرة الحكام عليهم لضعفهم وعدم جرأتهم على مقاومتهم. وإرادة التغيير هذه لا تكون عامة إلاّ إذا صاحبتها وحدة اجتماعية، تنبع عن الرغبة في التحرر والتطور، والمحبة الحتمية بين الأفراد، وهذه المحبة لا ترتقي إلا بالتجارب والثقافة العلمية الصحيحة، و هذا لا يحصل إلاّ إذا تزود الذهن بالمعارف ليحصل على حريته الفكرية ثم الإنسانية. والتي تعد من أهم الحقوق التي تنادي بها المجتمعات الحديثة منها حرية المعتقد. "حرية القلم"؛ حق الإنسان في التعبير بحرية، وهي تساعد على نقل الأفكار من حيز الذهن إلى حيّز الوجود المحسوس. والاعتداء عليه هو اعتداء على الإنسان، على عضو من أعضاءه. لذا يؤكد الشميل على أهمية التعاون بين أبناء الشعب الواحد نظراً لأهميته على صعيد الفرد بحد ذاته والمجتمع بشكل عام. فالوحدة قانون الوجود الطبيعي وكل الأشياء تتعاون فيما بينها في وحدة.

فالشميل يؤمن بحرية الرأي و التعبير عن إرادة الشعب الذي يعتبر مصدر السلطات وهدفها الأخير، ويؤيد الحكم الديمقراطي كأفضل حكم يعبر عن إرادة المحكومين من خلال قانون الانتخاب الذي ينص عليه. وهو يرفض بشدة التفرد بالحكم والاستبداد بالرأي كما هو الحال في أكثرية المجتمعات الشرقية ليؤكد على أهمية التعاون بين أبناء المجتمع الواحد حيث يخضعون للقانون والقانون الطبيعي وحده، الذي يجب أن يصبح من وجهة نظره قانون المجتمعات جميعها. وكما أنّ كل ما في الوجود في حالة تتطور دائمة، كذلك القوانين لا يجب أن تبقى ثابتة بل يجب أن تخضع للتغيير وفق ما تقتضيه مصلحة الأمة[2].

[1] شبلي شميل، فلسفة النشوء والارتقاء، دار مارون عبّود، بيروت، 1983، ص: 25

[2] المصدر نفسه، ص:31 .

والاشتراكية بالنسبة للشميل هي تطبيق للقانونين اللذين يسير عليهما المجتمع، التكافؤ والتكافل. وهي تعمل على تطبيق قوانين الطبيعة في المجتمع، وهي دعامة للقيم الأخلاقية فيه لما توفره من عدل ومساواة بين الأفراد عبر الاشتراك في العمل والمنفعة على نسبة هذا العمل.

و يفسرفكرته عن الاشتراكية فيقول: لا شك ان الاشتراكية إذا أريد بها الاشتراك بالمنفعة من غير الاشتراك في العمل تكون حلما باردا، و إذا كان الاشتراك في هذه المنافع على غير نسبة الاشتراك في العمل فلا شك أنها تكون جورا و مميتة لكل اجتهاد.[1]

فالاشتراكية تؤمن حاجات المجتمع الأساسيّة من مأكل ومشرب وكساء وفق عدد السكان مما يخلق جو من الاستقرار الاجتماعي. فهي الحل الأمثل لمسألة الظلم اللاحق بالإنسان لما توفره من فرص عمل تراعي المقدرة والكفاءة والتي تؤدي إلى إنقاذ الإنسان من استعباد المال والأفراد و ضمانةحقوقهم المغتصبة.

[1] رفعت السعيد، ثلاثة لبنانيين في القاهرة، الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1 ، 1973، ص: 11.

ثانيا، المادية عند شبلي شميل:

وكان الشميل قد شهد وقت وصوله إلى القاهرة أجواء معركة فكرية لخصت أحوال المشرق العربي آنذاك، وما يشهده التفكير العلمي من هجمات تصدى لها رجال الدين بعقلية ترادفية وفكر دوغمائي، مما جمد حركة التاريخ ووضع حول العقل أسيجة من الجهل والتغييب، فنشبت، عام 1876م، معركة ضارية بدأت بمقال نشر في جريدة المقتطف حول دوران الأرض، أكد فيه كاتبه يعقوب صروف أن العلم حسم المسألة بشكل نهائي، وأن الأرض تدور حول الشمس وحول نفسها، وساق الكاتب الأدلة العلمية التي تؤكد ذلك، فانفجرت في وجهه قنابل موقوته تناثرت شظاياها هنا وهناك، فكتب الأب جبريل جبارة مقالاً ساق فيه عددًا من الأدلة الدينية التي تؤكد ثبوت الأرض وعدم دورانها، كما شن أرشمندريت الكرسي الأنطاكي في بيروت هجومًا حادًا على صروف، وسرعان ما دارت رحى حرب كلامية بين الفريقين استغرقت زمنًا طويل[1]

قرر شميل أن يلقي هو الآخر حجرًا في المياه الراكدة، وهو يعبر عن هدفه هذا صراحة، حين يقول في كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء": "فهذه الرجة التي حصلت اليوم هي المقصودة مني في ذلك الحين، لإيقاظ الأفكار من نومها العميق"[2].

جردالشميل قلمه دفاعًا عن العلم في محيط جغرافي متوجس ومرتبك، ولم يتردد لحظة عن التصريح بما يؤمن به، فكانت المعركة الكبرى عندما صدر كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء" وهو ترجمة لكتاب بخنر" ست محاضرات حول نظرية داروين."

ويمكن القول إنّ "نظرية التطور" لدارون كانت نقطة الانطلاق، لا المنتهى، إذ حاول الشميل إسقاط الداروينية على البنى السوسيولوجية في معرض تناوله لمسألة الارتقاء الاجتماعي، فالمجتمع في رأيه ينشأ ويتطور مثلما ينشأ الجسم الإنساني، وكلاهما ينتقل من حال إلى حال في تحسن مستمر، إذ يساعد الارتقاء على التخلص من مساوئ كل مرحلة سابقة، وإذا كان النشوء هو القاعدة الأولى التي يرتكز عليها الجسد فإن الارتقاء والتطور هو آلية هذا الجسد للتخلص من الانحلال والعجز.[3]

[1] رفعت السعيد، شبلي الشميل رائد الفكر العلمي في مصر، الطليعة، مؤسسة الأهرام، القاهرة، 1969، ص: 131.

[2] شبلي الشميل: فلسفة النشوء والارتقاء، مطبعة المقتطف، القاهرة، ط2، 1910، ص:5.

[3] شبلي الشميل: المجموعة، ج2، دار نظير عبود، بيروت،1991، ص: 40.

ولعل نشأته العلمية كانت سببًا لانحيازه للعلوم الطبيعية دون غيرها، فهي في رأيه "أم العلوم الحقيقية، ويقتضى أن تكون أم العلوم البشرية كافة، وأن تقدم على كل شيء."[1] ولعل ذلك يرجع إلى ما آلت إليه العلوم الإنسانية وقتها في المشرق العربي من تدهور، فهو يصفها بكلمات ربما تكون قاسية لكنها تعبر عن واقع يعيشه ويرفض الاستمرار فيه، فعلوم الكلام في رأيه تحولت إلى ما يشبه هذيان المصدعين لتفسير ما لا يفسر وتأويل ما لا يؤوّل، وعلوم اللغة صارت مماحكات لا طائل منها ولا تعبر عن أي فكر، وعلوم الفقه صارت سخافات يتنزل العقل فيها إلى حد التبذل، وعلوم القوانين صارت لاهوتًا ثابتًا لا يفهم، وصارت علوم الآداب والفلسفة المترتبة على ذلك كله هيامًا في الأوهام على حد تعبيره، وهو ما أدى في النهاية إلى نظم اجتماعية يسودها الاضطراب وتفتقد إلى الاتزان[2].

لم يكن هذا الموقف مجرد تطرف في التعبير، بل هو تجسيد لموقف فلسفي يقوم على نظرية سبنسرالمسماة بالنظرية العضوية للمجتمع، وهي نظرية تحاول أن تحلل الحياة الاجتماعية بشكل ميكانيكي وفقًا للقوانين الطبيعية، كما يظهر تأثره بأفكار بخنر خاصة المبدأ القائل بأن تقدم العلوم الطبيعية هو مفتاح الموقف، وأن سبيل أي نهضة وتطور أي مجتمع عند الشميل يبقى رهنًا بحل التناقض بين القوانين السائدة في المجتمع والقوانين التي تمليها الطبيعة.[3]عندها ينتهى خوف الإنسان من المجهول، ويتبدد جهله بفضل العلوم الطبيعية التي تكشف له حقائق الكون، ويرى أن الإنسان سيتمكن مع العلم من ترك الإيمان بكل ما هو غير طبيعي وغير واقعي، وتتأكّد لديه فكرة تسلسل الكائنات ونسبتها بعضها إلى بعض، فيدرك ما خلفته العصبيّات الدينية من أخطار هددت مسيرة التقدم[4]. "فمعرفة الناس بنواميس الاجتماع الطبيعي تجعلهم يحسنون تطبيق نظاماتهم عليه، فيقدرون فيها ناموس التكافل القاضي بتقاسم المنفعة على قدر العمل حق قدره"[5].

وعليه، فقد أراد الشميل تطبيق القوانين الطبيعية على المجتمع، وعلى قواعد تطوره، محاولاً استخلاص قوانين من الطبيعة تطبق بشكل آلي على حركة المجتمعات الإنسانية، ولعله يقترب كثيرًا من قوانين المادية الجدلية التي ترى أن القوانين الطبيعية هي التي تتحكم في حركة المجتمع من اللحظة الأولى لنشأة المجتمعات الإنسانية وفي مختلف مراحل تطورها.

---

[1] شبلي الشميل: فلسفة النشوء والارتقاء،مصدر سابق، ص: 8.

[2] المصدر نفسه، ص: 8.

[3] رفعت السعيد،شبلي الشميل رائد الفكر العلمي في مصر،مرجع سابق، ص: 140

[4] شبلي الشميل: فلسفة النشوء والارتقاء، المصدر السابق، ص: 44

[5] المصدر نفسه، ص: 12.

❖ العلم الطبيعي والدين:

لقد كان العلم بطبيعة الكائنات ناقصا جدا، وذلك قبل أن يقوم العلم الطبيعي على أسس راهنة في القرن الماضي، فبالنسبة لشميل قد كان هناك اعتقاد ينص على أن مواليد الطبيعة منفصلة عن بعضها انفصالا جوهريا من ناحية المواد الداخلية في تكوينها والقوى التي تفعل في هذه المواد وأيضا الاعتقاد بأن الكائنات الحية خلق خاص لا يتغير وكذلك الاعتقاد بأن القوى التي في النبات هي غير القوى في الجماد ونفس الحال بالنسبة للحيوان.

أما بالنسبة للإنسان، فقد كان العقل ميزته وحدهو من جوهر مستقل عن جوهر عقل الحيوان، وأن الجوهر الإنساني الخاص به كان غريبا عن الطبيعة المحسوسة، هبط إليه من العلي ألا وهي النفس وهذه الأخيرة تحفظ عينه في العالم الروحاني بعد الموت.

وعليه فشبلي شميل يعتبر أن هذا الكلام ليس له أدنى دليل، وبالنسبة له فهم معذورين، لأنه لم يكن يعلم أن هذا الفرق نسبي فقط، خصوصا مع أقربها إليه . أي الحيوان . فلما ترعرع العلم الطبيعي وتهيكل سقطت كل هذه الحواجز بين الكائنات في الطبيعة، واتضح حين إذن أن جميعها من حي وجماد وإنسان وحيوان من أصل واحد مشترك في موادها وقواها وأنها جميعا متحولات بعضها إلى بعض ومنحلات بعضها إلى بعض[1]. ويقصد شميل أن الإنسان قد عاش على خرافات سيرت له حياته ومعتقداته، لكن التقدم الذي طرأ على العالم الطبيعي ودرأ الجماد الذي كان محاطا بالخرافات، وقدم الأدلة على أن أصل الكائنات مشترك من حيث المادة والقوة، وأعطى شميل مثال عن الجماد في القرن الماضي حيث قال:

"فتحريك الآلات بالكهرباء ونقل الأصوات بالتلفون وحفظها بالفوتوغراف ورسم الصور في السينيماتوغراف ونقل الأنباء في التلغراف واللاسلكي، فلو سمعنا عنه في القرن الماضي لنسبناه للجن، هي جميعها من أصل الكهربائيات البسيطة المعروفة من عهد طاليس واليونان"[2].

هذا فيما يخص الجانب الطبيعي. أما من الجانب الديني، فقد اعتبرت آراء الدكتور شبلي شميل آراء غريبة لأنها تختلف على ما كانت عليه الآراء في زمانه حيث قال" أما غرابة آرائي الدينية فليست إلا لكونها مخالفة لآراء الغالبة بين الناس في أصل الإنسان على هذا الوجود،

[1] شبلي شميل، آراء الدكتور شبلي شميل، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، 2015م، مصر، ص: 13.

[2] المصدر نفسه، ص: 14.

ويذهب شميل إلى أن الاعتقاد في القديم كان يقر أن أصل الإنسان غير ما قرره العلم اليوم، فكانت الآراء الدينية حين إذن متناسبة مع ذلك الاعتقاد، وأما اليوم قد قرر العلم أن الإنسان كسائر الأحياء في الطبيعة ليس فيه شيء غريب عنها لا في مواده ولا في قواه[1]، أي أن الأفكار الدينية صارت قديمة غير صالحة لأن تكون نتيجة لازمة لهذا العلم.

فبالنسبة لشميل التوفيق بين الأفكار الدينية و العلم غير ميسور لها بالعلوم العقلية و الفلسفية و غيرها من علوم الكلام كما كان في القديم، أي أن الدين مهما بذل من جهد اليوم في ذلك فالعلوم الطبيعية تنفيه، فقد كانت هناك العديد من التطورات و لم تكن عبادته في أول أمره كما في اليوم بل كانت بسيطة جدا، بل كانت عبارة عن خوف فقط لم ينظر فيه أولا إلا بسبب مصلحته فعبد كل من رأى سلطانا عليه، وهو ما ذكره محجوب عبيد طه حول العلاقة بين العلم الطبيعي و الدين، حيث ذكر أن ما تعلمناه من العلم الطبيعي من هذا العالم خلال القرن الحالي أكثر ما علمتنا إياه الأديان خلال كل القرون السابقة، و النقطة الثانية ادعاء أن الجهل بتفسير الظاهرة سبب الاعتقاد بأنها من عند الله، قال بعضهم أن الناس يعتقدون أن الخسوف و الكسوف من إرادة الله[2] حيث قال: و كم عبد الناس ملوكهم و ألوههم في القديم[3].

و بالنسبة لشبلي شميل فإن الجهل في أول نشوء الإنسان هو ما جعله ما يميز بين ما هو ضار و نافع، عظيم أو حقير، مرغوب أو مرهوب إلا و توهم فيه ذلك، فعبد الحجر و الشجر و الحيوان و الإنسان نفسه ولم يتخلص من هذه الأفكار إلا بعدما أن ارتقى و رأى فساد معبوداته في هذا الوجود.

يقول: أنا لم أنظر إلى الأديان نظر المستخف بل بحثت فيها كما بحثت في كل شيء متعلق بالإنسان ككائن طبيعي تقلب على أطوار مختلفة في نشوئه، و هي في اعتقادي نفعت كثيرا و أضرت كذلك، ككل نظام يكون نفعه أكثر من ضرره في أوله ثم ينقلب في أيدي أتباعه إلى الضد أو أنه لا يعود يصلح شأن كل موضوع لا بد من تعديله على الدوام ليوافق روح كل زمان و مكان[4]

و بحسب شبلي شميل في أصل الدين أن الإنسان كان يهمه إرضاء شهوته للطعام و شهوته الجنسية فلم يكن الإنسان يهتم إلا لهتين الشهوتين و لم يكن يهتم إلا بهما لذلك كانتا تستغرقان كل وقته، ولكن عندما

[1] شبلي شميل، آراء الدكتور شبلي شميل، المصدر السابق، ص: 15.

[2] محجوب عبيد طه، تصوران للوجود، ص ص: 41،40.

[3] شبلي شميل، آراء الدكتور شبلي شميل، المصدر سابق، ص:15.

[4] المصدر نفسه، ص: 15.

عرف الصيد و الاجتماع ارتقت لغته بعض الرقي فبدأ يعتقد في بعض الأشياء، فكانت في اعتقاداته الكبرى آنذاك أن الموت سبب سحر أو شخص أراد الإضرار به، فالموت حسب الإنسان الأول كان طبيعيا عند موته بالغرق أو القتل أو حادث ما يعرف الإنسان سببه، لكن أن يموت الإنسان دون سبب واضح فهذا يعد شيء غير مألوف ولم يكن يعقله، لذلك صار يعتقد أنه عندما يموت وحده بشيخوخة أو مرض فهو يعتقد أن هذا حدث بفعل إنسان بعيد عنه عن طريق السحر، ومن هذه النقطة نشأ السحر[1]، بالنسبة له فإن الإنسان الأول لم يكن يعتقد أن الموت هو نهاية للحياة وذلك راجع في كونه أن بعض الأشخاص تظهر عليهم دلالات الموت ثم يفيقون و كان أحيانا يرى بعض الموتى في أحلامه فيخاطبهم و يخاطبونه كأنهم أحياء فيتوهم من ذلك أن الموت لا يناقض الحياة، و قد نتج عن ذلك عدة أشياء :

أ. صار الإنسان يعتني بالجثة و يقدم لها الطعام معتقدا أن صاحبها حي و من هنا نشأت صناعة التحنيط و فكرة التضحية و القربان.

ب. عندما كان يموت عدوه أو أحد كبار المجرمين الذين آذوا القبيلة أو العشيرة كان يخشى بؤسهم بعد الموت فكان يقيد أيديهم و أرجلهم بعد الموت أو كان يضع فوقهم ركام من الأحجار حتى لا يستطيعون القيام من تحتها، فنتج عن هذا صناعة القبور ثم المعابد.

ت. عند موت رئيس العشيرة أو القبيلة أو أحد الأبطال المحبوبين أو اللذين كان يحترمهم و يخافهم في حياته و ينظر إليهم كأنهم حماة القبيلة، كان يستمر على احترامهم بعد الموت و يذكرهم هو و أبناؤه من بعده، فمع مرور الوقت يصير هؤلاء الأبطال آلهة، و تصير قبورهم معابد تزار.

ث. كانت الجثة تبلى فيزول فمها و يداها فيعرف أنها لا يمكنها أن تأكل فيضع شبها من الطين أو الحجر و يقدم له الطعام و من هنا نشأت صناعة الأصنام و التماثيل و أيضا هناك سبب آخر لنشوء التماثيل عن طريق السحرة، فالسحرة إذا أرادوا أن يؤذوا أحدا صنعوا تمثالا له من الطين ثم قتلوه اعتقادا منهم بأن ما يحصل للتمثال يحصل لصاحبه[2].

أي أن الإنسان الأول لم تكن له دراية بالدين أو الآلهة لأن شهوته في الطعام و الجنس أخذت كل وقته، ولم يستطع التفكير في شيء آخر، إلا أنه باكتسابه للغة و تكوين جماعات من أجل التواصل جعلت منه إنسانا

[1] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، مؤسسة هنداوي للثقافة و التعليم، القاهرة، مصر، ص: 202.

[2] المصدر نفسه، ص: 203.

مفكرا و لو قليلا، لهذا كانت فكرة الموت المفاجئ، حدث غريب لا يستطيع تقبله، و من وراء هذا الحدث أصبحت لديه عدة معتقدات تمثلت في عبادة الأصنام، إنشاء القبور، فكرة التحنيط و تقديم القرابين.

أما من جانب التوحيد فقد نشء عند الأمم التي لا تحسن البناء و صناعة التماثيل و الأصنام، ولذلك ظهر بين الأمم البدوية التي تعيش في الخيام مثل الهوكسس و الإسرائيليين و العرب، و الهوكسس حسب رأيه هم أول من آمن باله واحد يجدونه في كل مكان يذهبون إليه ولا يحتاجون إلى تمثيله في صنم يرهقهم حمله و نقله، أما الأمم المتحضرة فكانت تجيد صناعة الأصنام، تنحتها من المرمر فكانت لها هياكل ثابتة عليها كهنة و لها أوقاف، فكان من الصعب أن تروج فكرة التوحيد[1] .

و بذلك يثبت شميل رأيه عن طريق تاريخ الهوكسس و الإسرائيليين و العرب بأنهم حضارة بدوية كانوا يعتمدون في عيشهم على الترحال، فلم يستطيعوا عبادة أصنامهم بسبب ترحالهم المستمر لأن ذلك يرهقهم فاختاروا أن يعبدوا إله واحد يجدونه في كل مكان دون حمله، عكس الحضارة المتحضرة بحسب قوله و المتمثلة في الأمم التي تجيد صناعة الأصنام و نحتها، و التي كانت لا تحتاج للتنقل للعيش، بل كانت تقطن مساكن و مدن، فاختاروا أن يعبدوا آلهة يمكن رؤيتها مثل الأصنام و بما أنهم لم يكونوا بحاجة للترحال أسفر ذلك على بقاء و ترسخ معتقد الآلهة المتعددة

يعتقد الشميل أن الدين يضع الطبيعة والكائنات في قبضة قوة إلهية أبدعت الكون وأجرت في حركته ونظامه مشيئتها وهذا ما يصادر جزء كبير من الحرية الإنسانية بالإضافة إلى أنّ الدين هو المسؤول عن الأنظمة الثيوقراطية حيث يستغلونه الحكام لخدمة مصالحهم وهي المسؤولة عن كل ما لحق الاجتماع البشري من تقهقر واستبداد. وكذلك النظرة المتخلّفة للدين عند المؤمنين المتعصبين تخلق أحقاد تعطل فكر المجتمع وتحول دون تطوره. والدور الكبير في ذلك لرؤساء ورجال الدين الذين يجدون مصالحهم في خضم هذا التعصب الأعمى.الذي يؤدي فيما بعد إلى تعصب فكري يمنع المجتمع من الاستطلاع على كل ما هو مناقض لفكره الميتافيزيقي ويقصد العلوم الطبيعية كونها شعلة الأمل الوحيدة في طريقنا إلى التقدم والنهضة والتطور الطبيعي الذي يحكم الكون.

[1] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، المصدر نفسه، ص: 204.

الفصل الثاني

نظرية النشوء والارتقاء عند شبلي شميل.

أولا: شرحه لداروين.

ثانيا: آراؤه في العالم الطبيعي.

ثالثا: آراؤه الفلسفية.

تمهيد الفصل:

تعتبر نظرية التطور من أهم المشكلات التي شكلت مركز اهتمام تفكير الفلاسفة و الباحثين و انشغالهم بها لكونها نظرية أحدثت ضجة كبيرة في هذا العصر، فقد مست الدين بالدرجة الأولى حيث ثار رجال الدين ضده، و من أبرز مفكري هذه النظرية نجد المفكر و الباحث المعاصر العربي الدكتور شبلي شميل، و الذي يعد من أهم الباحثين و الدارسين العرب في نظرية التطور و معتقداتها و مبادئها، حيث نجد أنها عالجت و درست الكائنات الحية و الإنسان بالدرجة الأولى على اعتبار أن هذه النظرية بالنسبة لشبلي شميل هي التي استطاعت الإجابة عن التساؤلات المطروحة حول أصل الأنواع و دور داروين في تحقيق نجاح انتشارها.

ومنه مما تقدم يمكننا طرح التساؤل التالي: كيف كان تصور شبلي شميل لنظرية التطور؟ وما هي أهم الأفكار الداروينية التي استقى منها شبلي شميل استنتاجاته حولها ؟، وما هي أهم المراحل التي مرت بها الكائنات الحية في تطورها؟

أولا: شرحه لنظرية النشوء و الارتقاء.

شرحه لمذهب داروين.

نظرية التطور لداروين تأتي ضمن نظرية عامة في التكور العضوي. ونظرية التطور العضوي بدورها هي واحدة من نظريات التطور، وهي تشير إلى نمو الكائنات الحية وتسلسلها من أبسط صورها، أو من الكائنات الحية المتناهية في الصغر. و تذهب هذه النظرية إلى أن جميع الأشكال المادة الحية: كل النبات الحية و جميع أنواع الحيوانات، و جميع الأجناس البشرية، قد طرأت عليها تغيرات تدريجية من الخلايا الجرثومية الأولى. إذا نظرية داروين و النظرية الداروينية عموما هي نظرية أو مجموعة من نظريات تندرج ضمن نظرية عامة عن التطور العضوي، الذي هو نفسه ليس إلا شكلا واحدا من أشكال التطور.[1] وهو ما ذكره لالاند في موسوعته: هي مذهب يقول إن القانون العام لنمو الكائنات هو التباين، و هو القانون الذي يمكن بمقتضاه أن تكون قد تكونت على التوالي المنظومة الشمسية، الأجناس الكيميائية، الكائنات الحية[2]. و الداروينية كذلك هي مذهب التحول أو التبدل، و هو القول أن الأنواع تنشأ بعضها عن بعض، ولا سيما النوع الإنساني فهو منحدر عن الأنواع الحيوانية التي ترجع إلى أصل واحد أو عدة أصول[3].

إن شبلي شميل كان أول مثقف عرب استطاع نقل أصعب المسائل الداروينية إلى اللغة العربية بأسلوب موفق وإليه يعود الفضل بإدخال مصطلح فلسفة النشوء والارتقاء في لغة الضاد، مما يزيد دون شك من شأنه العلمي[4].

[1] الشيخ مرتضى فرج، الداروينية العتبة العباسية المقدسة ، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، الطبعة الأولى، 2017، ص: 11.

[2] أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مجلد الأول، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ص: 381.

[3] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ص: 556.

[4] علي عجيل مهند و مكي حبيب المومن، من طلائع يقظة الأمة العربية، دار الرشيد للنشر، ص: 103.

يذهب شبلي شميل في شرحه لمذهب داروين إلى أن هذا المذهب في شرحه بسيط جدا، وباستطاعة كل إنسان أن يدركه إذا نظر إلى الأشياء كما تعرض له و تأملها بعين العقل، حيث يتعجب في اللذين يشقون حجب الغيب بقوة عقلهم، و يدركون ما وراءها من أسرار كيف أنهم لا يقدرون على إدراك ما هو أمامهم[1] .

أي أن شميل يستنتج من دراسة مذهب داروين إلى أنه مذهب بسيط ولا يمكن لكل العامة إدراكه لأن معظمهم يقومون بزرع النبات و تربية المواشي و يمشون على قواعد هذا المذهب عمليا، ولكن يقول إذا سألتهم عنها نظريا أنكروها، فالشميل يؤكد على أن لا أحد إن كان عالما أو مجرد زارعا أن ينكر الاختلاف بين أفراد الحيوانات و أفراد النبات و هذا الاختلاف صالح للبعض و غير صالح للبعض الأخر و لا يمكن أيضا نكران الوراثة مما لها قوة في نقل صفات هذا الاختلاف في النسل و كيف هذه الصفات تقوى إذا ناسبتها الأحوال و تضعف إذا لم تناسبها، فالزارع مثلا كالعالم يعرف أن البذور الجيدة أحسن من البذور الرديئة التي ليس لها ذلك فيفضلها عليها و يعرف كذلك أن الأرض الجيدة أنسب من الأرض الرديئة و يفضلها عليها فيقدم لها المواد اللازمة لإصلاحها و يقتلع منها الأعشاب الضارة[2].

يقصد شميل هنا أنه لا يمكن إنكار ما جاء به داروين في نظريته إذ مايحدث في الواقع عند المزارع في محاولته في تربية المواشي حيث يجعل التزاوج بين أفضل مواشيه أو اختيار أرض تصلح فيها الزراعة و اختيار بذور فيها صفات مناسبة لكي يكون المنتوج ذو جودة.

كذلك يتحدث شميل عن المطابقة التي ينشأ عتها الاختلاف و يقصد بها انفعال القوة بالأحوال الخارجية الطبيعية، يجعل في الأحياء قابلية وجودية مختلفة فيطلب الضعيف القوت فينازعه القوي عليه إذا كان القوت قليل يهلك الضعيف، أو إذا اشتد البرد أو قل الماء فلا يثبت إلا من كان أقوى على تحمل البرد[3] .

وبالنسبة لشميل عند شرحه للنظرية الداروينية يقول:" إذا سلمنا بهذا التنازع بين الأحياء وجب علينا بالضرورة أن نسلم ببقاء البعض و فناء البعض للأسباب التي ذكرناها و هذا ما يراد بالانتخاب و يسمى طبيعيا إذا كان بين الأشياء من الخارج و بين الأحياء أو بين بعضها البعض و صناعيا إذا كانت بواسطة الإنسان"[4].

أي من منا لا يسلم بالتنازع بين الأحياء فكم من قوي أكل الضعيف سواء حيوان أو إنسان أو نبات و كم من حي أبادته الظروف و العوامل المناخية لأن جسمه لم يستطع مقاومة الحر أو البرد أو الجفاف، فإذا كنا

[1] شبلي شميل، الحقيقة، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، مصر، ص: 39.

[2] المصدر نفسه، ص: 39.

[3] المصدر نفسه، ص: 40.

[4] المصدر نفسه، ص: 41.

مقتنعين بكل هذا و ليس لدينا أدنى شك فلماذا لا نقتنع و نسلم ببقاء البعض من الأحياء وفناء البعض بسبب العوامل التي ذكرناها، في نظر شميل فإن الانتخاب الطبيعي ليس فرض بدون إثبات أو رأي من صور الوهم كما قدمت و كما يدعي خصوم داروين لأن في رأيه أن داروين لا يقول أن الأحياء تحول لأسباب طبيعية مجهولة حتى يكون الانتخاب فرض بل يجعله نتيجة لازمة لأعمال حيوية معروفة كالمطابقة التي هي نتيجة التغذية و الاختلاف كما قلنا سابقا هو نتيجة المطابقة و التنازع الذي هو نتيجة الاختلاف أو رأي من صور الوهم كما قدمت و كما يدعي خصوم داروين لأن في رأيه أن داروين لا يقول أن الأحياء تحول لأسباب طبيعية مجهولة حتى يكون الانتخاب فرض بل يجعله نتيجة لازمة لأعمال حيوية معروفة كالمطابقة التي هي نتيجة التغذية و الاختلاف كما قلنا سابقا هو نتيجة المطابقة و التنازع الذي هو نتيجة الاختلاف أو رأي من صور الوهم كما قدمت و كما يدعي خصوم داروين لأن في رأيه أن داروين لا يقول أن الأحياء تحول لأسباب طبيعية مجهولة حتى يكون الانتخاب فرض بل يجعله نتيجة لازمة لأعمال حيوية معروفة كالمطابقة التي هي نتيجة التغذية و الاختلاف كما قلنا سابقا هو نتيجة المطابقة و التنازع الذي هو نتيجة الاختلاف[1] .

أي أن الانتخاب الطبيعي ما هو إلا نتيجة لازمة للتنازع لأن الشميل لم يأتي بهذه الفكرة من الفراغ لكن أتى بها من عوامل تحدث أثرها على الكائنات الحية، حيث نلحظ هذا الأثر بالاختلاف والمطابقة و التنازع و لا يمكن للإنسان العاقل أن يجعل الانتخاب الطبيعي بعد كل هذا مجرد فرضية.

يقول شميل:" الطبيعة تولد أشياء عظيمة لعوامل تكاد تكون بالنظر إلينا ضعيفة، و غير محسوسة بتجميع قواها شيئا فشيئا على مر الدهور و الأدوار الجيولوجية الطويلة جدا"[2]، و يقصد هنا شميل أنه هناك عوامل، و هته العوامل بسيطة لدرجة أننا لا نشعر بها لكن مع مرور الوقت تتجمع هذه العوامل و تنتج لنا أشياء لم نتوقعها، فهذا المذهب حسبه يذكرنا بالمثل السائد:" البساطة علامة الحقيقة"، أي أن جميع الاكتشافات العظيمة و الاختراعات و الحقائق بسيطة جدا و قريبة الفهم، و أول شيء يعرض للذين يعلمونها أن يتعجبوا كيف أنها لم تعلم من قبل.

و في نظر شبلي شميل فعنوان كتاب داروين وحده يتضمن كل مذهبه مبدئيا و هذا هو تولد الأنواع بواسطة الانتخاب الطبيعي أو بواسطة حفظ الأصول الأكل في تنازع البقاء، و يعتبر هذا المذهب أنه مقسم إلى أربعة مسائل جوهرية، و إن لم يقسمه داروين و كذلك فدراسته على هذه الصورة يسهل فهمه جيدا و هي:

[1] شبلي شميل، فلسفة النشوء و الارتقاء، المصدر السابق، ص: 41.

[2] المصدر نفسه، ص: 93.

أ. تنازع البقاء.

ب. تكون التباينات أو تغير الأفراد.

ت. انتقال هته التغيرات في النسل بالوراثة.

ث. انتخاب الطبيعة للمتغير من هذه الأفراد، الذي يكون فيه بعض الأفضلية و هذا الانتخاب يحصلبواسطة تنازع البقاء.

و هذه العوامل الربعة إذا اجتمعت و تفاعلت معا فنتيجتها تكون استمرار تحويل الحياء في الطبيعة تكون ذاتية[1] و قد شرح شميل هذه العوامل بالتفصيل حيث يبدأ شرحه بالعامل الأول:

أ. تنازع البقاء:

جميع الأفراد من نبات أو حيوان ميالة للتكاثر، إلا من ضاقت عنه الأرض و قل غذاؤه، مثال: السمك، فلو صح نتاجه جميعه و كان الغذاء كافيا لضاقت لجج البحر و تغطت به الأرض و بلغ ارتفاعها به أذرعا في بضع سنين، عكس الأنواع التي تكاثرها قليل، كالفيل الذي هو أقلها نتاجا، فأنثى الفيل لا تلد حتى تبلغ الثلاثين ولا تلد من هذا السن إلى التسعين إلا ثلاثة أزواج فقط، و مع ذلك فقد حسبوا أنه إذا اخذ زوج واحد فقط و لم يعترضه ما يمنع تكاثره ففي مدة خمس مئة سنة يبلغ الناتج خمسة عشر مليون من الفيلة، وهو حال النبات فهناك نبات لا يعطي سوى جرثومتين كل سنة ففي عشرين سنة يبلغ عدد ما يحصى مليون و هذا أيضا حال الإنسان الذي يتكاثر قليلا، فلو صح جميع نتاجه لضاقت به نطاق الأرض في بضعة آلاف من السنين، كذلك الحال أيضا بالنسبة للخيل و البقر و الجمال...[2]

و اعتبر شبلي شميل أن هذه الكثرة في النتاج تعترضها أسباب كثيرة، منها مزاحمة الأفراد بعضها لبعض من جهة و عدم موافقة الأحوال الخارجية للحياة من جهة أخرى. أو هو تنازع البقاء وهذا التنازع على حالين، فاعل ومفعول حيث يراد بالفاعل ما كان بين الأحياء بعضها بعض، و بالمفعول ما كان بينها وبين قوى الطبيعة الصامتة.

أي أن التكاثر الذي يحدث بين الحيوانات أو الإنسان أو النباتات تعترضه، عدة عوامل إما من طرفه حيث يقتل بعضهم بعضا من أجل الأكل أو المأوى وغيره، وإما من الطبيعة ما تسببه من فيضانات وزلازل وحر وبرد مما تجعل الأقوى والأذكى هو الذي يصلح للعيش.

[1] شبلي شميل، فلسفة النشوء و الارتقاء، المصدر السابق، ص: 98.

[2] المصدر نفسه، ص: 99.

حيث قال داروين أن الطبيعة تزرع جراثيم بيد سخية إلا أن الكثير منها لا يبلغ تمام نموه و يهلك ملايين منها على الدوام، إلا أن الطبيعة و إن جادت بالكثير فقد علقت هذا الكثير بأسباب التلاشي و الهلاك[1].

و أيضا لداروين في وصف هذا التنازع للبقاء ما نصه: إننا إذ نسمع تغريد الطيور في الليالي الزاهيات و نرى الطبيعة بسمة عن ثغر الصفاء و السكون، لا يخطر لنا ببال أن جميع هذه السعادة إنما هي قائمة على تلاشي في الحياة متسع و مستمر فإن الطيور تتغذى على أنواع الذباب و بذور النبات.

أي أن الفائز من بين هذه الأفرادوالأنواع وغيرها ليست إلا في تنازع من أجل البقاء والأنواع الفائزين دائما ما يتميزون بصفات جسدية أو عقلية تحقق لهم هذا الفوز، وهذه الصفات كثيرة قد تكون: الأقدام، القوة، القد كبره أو صغره وأيضا وسائل الدفاع أو الهجوم أو اللون أو الجمال أو السرعة أو الصبر على الجوع أو حسن الكساء أو الحيلة أو حسن التدبير في القوت الخ...

فبالنسبة لشميل هذا التنازع معظمه لا يكون إلا بين الأنواع الأقرب بين بعضها البعض لاشتراكها في المتنازع عليه. و كلما ابتعدت بعضها عن بعض قل التنازع فمثلا يتضح كل ذلك على نوع عجيب في أستراليا و هولندا الجديدة فإن هذا القسم من العالم المنعزل جغرافيا من كل منازعة لم تزل حيواناته ونباتاته متأخرة تشبه أحافيرنا المتكونة منذ زمن طويل، و أعلى حيواناته رتبة هو ذو الجراب الذي عاش في أوروبا في الدور الثاني و تلاشى لتغلب أنواع أخرى أقوى و أكبر و إنما بقي مثل هذا الحيوان في أستراليا إلى يومنا هذا ولم يتلاشى لعدم وجود منازع له، و لكن من يوم دخلها الإنجليز أخذ كل ما فيها بالتلاشي حتى كاد يزول[2].

لقد دقق داروين في البحث عن الارتباط بين ما يفعله التنازع عن البقاء، في ظواهر الوجود، و بلغ فيه نتيجة عظيمة و فسر به تلقيح كثير من النباتات بالذباب الذي يتردد عليها كالنحل و الزنابير و غيرها حاملا البنن من زهرة إلى أخرى و لولاه لما تلقحت النباتات المذكورة، وعدد الزنابير يتوقف على عدد فأر البيش الذي يخرب أوكارها، وعدد فأر البيش يتوقف على عدد القطط و البوم التي تفترسه و هكذا ...[3]

وهذا يبين لنا أن كل جسم حي يرتبط في تكوينه وصفاته الخاصة ارتباطا شديدا ولو أنه خفي غالبا بغيره من الأجسام الحية التي تنازعه في مسكنه و غير ذلك.

و هذا ما شرحه شميل و قاله فيما خص تنازع البقاء الذي اعتبر أن التنازع في الحياة الأدبية هو تنازع في الحياة الطبيعية.

---

[1] شبلي شميل، فلسفة النشوء و الارتقاء، المصدر السابق، ص: 100.

[2] المصدر نفسه، ص: 101.

[3] المصدر نفسه، ص: 102.

ب. تكوين تباينات الوراثية :

و هي مبنية على قاعدة وضعها داروين و هي أن الأجسام الحية ميالة إلى التغيير على أوجه مختلفة و إلى حد محدود[1]

أي أنها تنحرف عن الأصل الصادرة عنه، وتتغير صفاتها كاللون والكساء والقد والقوة أو تكون بعض الأعضاء الجديدة، فلا تشبه الآباء شبها مطلقا.

إذن فالشميل يعتبر أن التحول إلى حد محدود هو ناموس عام يطلق على جميع الأحياء و كذلك يعتبر أن الابن يشبه أبويه في الصفات الجوهرية، و لا يشبههما أبدا بكل الصفات و لو أن الاختلاف جزئي غير محسوس، وعلى رأي داروين أن أصل الأنواع أنها حاصلة عن انحصار بعض الصفات في بعض الأفراد، و انتقالها في النسل بالوراثة و ثبوتها فيه مع الزمن الطويل، فالتباينات حسب رأيه هي أنواع في حالة النشوء[2]،فالحيوانات مثلا فإن فيها أصولا كثيرة يعدها بعضهم تباينات و بعضهم أنواع، وهناك تباينات كثيرة تتلاشى في التصالب أو الانتخاب الطبيعي و هناك من يزعم أن الأنواع كلها غير متساوية في قابليتها للتغيير و بعضها متغير جدا و بعضها ثابت وغيرها متغير إلى حد محدود، و سبب هذا الاختلاف حسب رأيه هو أحوال الحياة الخارجية و كثرة انتشار النوع أو قلته[3]

وكذلك يذهب إلى أن الوراثة تنقل الأمراض كما تنقل العيوب التكوينية مثل زيادة عدد الأصابع، الأظافر، تشقق الجلد. وكما أنها تنقل الصفات الجسدية، أيضا فهي تنقل الصفات الأدبية وأيضا تنقل الشهوات والأميال والعواطف والأخلاق والعقل إلى غير ذلك. من عجيب أمرها أنها كانت كثيرا لا تقطع الأجيال الكامنة و لكنها تظهر في الأولاد بعد ذلك، و الانتقال الوراثي كان معروفا قبل داروين لكن ليس كما ينبغي لفهم ما يترتب عليه فكان إذا ذكر منه شيء يذكر على سبيل الغرابة، وأم اليوم فهو من أعظم الأمور التي يعتمد عليها في تاريخ ارتقاء العالم العضوي و ارتقاء الجنس البشري، بالرغم من أن الأطباء منذ القديم قد انتبهوا إلى الوراثة المرضية و عرفوا أن غالب الأمراض المزمنة فد تكون وراثيا و تكمن في الجسد و لا تظهر حتى سن معلوم كالسل الذي يظهر حتى سن البلوغ. و عرفوا أيضا انتقال الأمراض المكتسبة و لم يجهلوا أمر الدور الوراثي الذي يقرب الأولاد إلى أجدادهم بالميولات و العوائد و الأخلاق و الاستعدادات المرضية و صفات

[1] شبلي شميل، فلسفة النشوء و الارتقاء، المصدر السابق، ص: 104.

[2] المصدر نفسه، ص: 106.

[3] المصدر نفسه، ص: 108.

أخرى مرضية، فمثلا قد قال فيردو منذ نحو خمسة عشر سنة أن بدن الأب و بدن الأم يكتسبان مادة الجرثومة ومن ثم يكتسبها الولد[1].

يعتبر شميل أن الوراثة مهمة جدا في مذهب انتقال الأنواع، حيث قال داروين :"إذا كان من المقرر أن الاختلافات أكثرها شذوذا و التي لا تنطبق على جنس معلوم كنقص بعض الأصابع أو الأظافر أو زيادتها و غيرها تنتقل في النسل، كما ينبغي أن يكون في الاختلافات العادية التي يضع عليها جليا ناموس الوراثة الشامل لكل الصفات الفردية".[2]

وقد وصلنا الآن إلى آخر قضية من مذهب داروين و أهمها :

ت. الانتخاب الطبيعي:

حيث يسمى أيضا التحسين الطبيعي، فبالنسبة لداروين لا يكون هذا التحسين طبيعي إلا إذا كانت للاختلافات الحاصلة في الفرد معنا في تنازع البقاء.

أي أن الاختلافات الفردية تكون ضرورة على إحدى ثلاث حالات، إما تكون نافعة للمنازع أو مضرة له، أو لا نافعة و لا مضرة، ففي الخالة الأخيرة لا يكون لها معنى فبقاؤها و عدمه على حد سواء، و كذلك أيضا إذا كانت مضرة لأن الاختلاف الذي يحصل و الحالة هذه تكون نتيجة أحد الأمرين إما تلاشي الفرد أو تلاشي الصفة، و تختلف النتيجة إذا كان نافعا و يمتاز الفرد به على إخوانه و خصومه في تنازع البقاء، و ينتقل هذا الامتياز إلى نسله و ينمو فيه على مرور الأجيال، و هذا الامتياز في تنازع البقاء لا يحدث إلا بعد جهد جهيد، فلكي يؤلف الفرد به نوع جديد لا يكفي امتيازه به مرة واحدة بل يلزم لذلك أحيانا مئة جيل أو ألف جيل أو عشرة آلاف جيل، و هذا الأمر نجده في مذهب داروين، فداروين في علم الأحياء اقتفى آثار علم الجيولوجيا، ففتح لنا السبل لفهم أعظم أعمال الطبيعة القائمة على أسباب أو قوى ظاهرها ضعيف أو قليل الأهمية إلا أنها ذات فعل و غن كان بطيء، فإنه يجتمع مع الزمن الطويل و يأتي بكل ما نرى [3]

فشميل ينظر إلى الانتخاب الطبيعي على أنه أساس مذهب داروين، و لكي يفهم معناه كما ينبغي لا بد من معرفة الأسباب التي دعته إلى القول به، فهو توصل إليه أما بدرس علم تسين الحيوانات و النباتات الأهلية، وهذا العلم قد بلغ مبلغا عظيما بنتائجه ولاسيما في إنجلترا موطن داروين، حيث يوجد أناس متفرغون لذلك فقد أجرى داروين امتحانات كثيرة من هذا القبيل لكي يتأكد بالعيان فعل هذه الصناعة فتحقق بنفسه أن

[1] شبل شميل،فلسفة النشوء و الارتقاء، المصدر السابق، ص: 108.

[2] المصدر نفسه، ص: 109.

[3] المصدر نفسه، ص: 110.

التباينات الكثيرة للحمام إنما أصلها كلها اليمام أي الحمام البري، لأنها قد تحتوي بعض الصفات الخاصة به الدالة على أصلها، فرأي داروين أن الإنسان قد بلغ الغاية القصوى في التحسين الصناعي لأنه قد يستطيع أن يجمع في أصل واحد أقل الاختلافات الفردية بواسطة الانتخاب الصناعي و ميل الصور إلى التغير أو الانحراف عن الصورة الأصلية، ويتضح هذا في الأحياء الواقعة تحت فعل التربية و الصناعة أكثر من الواقعة تحت فعل الطبيعة، و في رأي شميل أن التحسين الصناعي قد كان معروفا منذ القديم، فقد كان الرومانيون القدماء و الصينيون و غيرهم يعتنون به ويظهر أنه معروف أيضا عند شعوب إفريقيا المتوحشين على أن الإنسان يربي حيوانات و نباتات وهو لا يدري أنه يختار أحسن الحيوانات و النباتات مثل كلاب الصيد و الجياد و غيرها فهم يبقون على أفضل الحيوانات اللازمة و يقتلون سواها و يتركونه وشأنه دون عناية[1].

و في نظر شميل أن علم تربية الحيوانات في إنجلترا تقدم كثيرا، حيث أصبح أمر تحسين حيواناتهم متطلب فصارت بقرهم المختارة للذبح ذات بطن ضخم و سيقان نحيفة و رأس صير لا قرون لها، و غنم للصوف و كلاب للقتال و حمام لحسن المظهر و خيل لحسن الصورة و أخرى للسباق، فيرى من هذه الأمثلة أنها متنوعة بحيث نوعت من طرق التحسين الصناعي حيث قال داروين بالاستناد إلى هذه الأمثلة :"إن الإنسان في طاقته أن يحسن الفروع صناعيا بانتخابه الأفراد التي يكون فيها بعض الصفات الموافقة لغاية ما، هكذا تفعل الطبيعة أيضا فإنها تجمع التغيرات النافعة للفرد و تنقلها من جيل إلى جيل، و الفرق الوحيد بين عمل الإنسان و الطبيعة هو أن الإنسان يعمل عن علم، و لذلك كان عمله يتم في زمن بالنسبة للطبيعة فصير، و أما الطبيعة يلزم لنجاحها زمن أطول بكثير، و يقول أيضا أنه إذا كان الإنسان يحصل على مثل ذلك في الانتخاب فكم يجب أن يكون هذا الأمر أعظم في الطبيعة التي لا تنتخب لمصلحتها كما يفعل الإنسان منتخب نفسه، كذلك داروين لا ينكر تأثير الأسباب بل يعترف بتأثيرها و يضعها في مقام رفيع بجانب الانتخاب الذي يعده في المقام الأول. و الأسباب المذكورة هي كما تقدم العادة و الاستعمال و الضرورة من الأمثلة التي يذكرها داروين بعلم ما لهذه الأسباب عنده من القيمة في أمر التغيرات الحادثة فلأجلها كانت عظام رجلي البط أقوى و عظام جناحيه أضعف من البط البري و كذلك البقر و الماعز التي تحلب دائما حلماتها تصير كبيرة، و يعترف داروين أيضا بتأثير الأحوال الخارجية للحياة إلا أنه يجعلها دون انتخاب طبيعي لأن تأثير الأشياء الخارجية و تغيراتها

[1] شبلي شميل، فلسفة النشوء و الارتقاء، المصدر السابق، ص: 111.

الدائمة على سطح الأرض المتغير على الدوام حتى ظن الكثير من العلماء أنه يكفي وحده للتعليل عن التغيرات الدائمة للعالم الحي و ما حصل فيه من ارتقاء[1].

يعتبر داروين أن تجمع الصفات الموافقة في الفرد و دوام هذا التجمع فيه يسعيان به نحو الكمال في كل الأحوال لأنه مهما كان سلطان التحسين و التكميل عظيما فلا تحصل عنه هذه الغاية دائما لأنه قد يكفي أن يكون في الفرد امتياز و لو قليل المعنى حتى يقوى على أقرانه و لو كان أضعف منها في باقي الصفات و قد يكون الامتياز أحيانا سبب الانحطاط ككبر القد و العافية في حين فقد القوت، و عليه فالارتقاء يصاحب تغيرات الفرد دائما ووجوبا مثل الدب الأسمر الحالي فإن أصله دب الكهوف الذي كان أكبر منه و أقوى لكنه انحط إلى حالته الحاضرة بسبب تغيرات على سطح الأرض و المسكن و القوت و كذلك الديدان الباطنية فإن أصلها من دودة كانت سابقا في الخارج أكمل منها لكنها فقدت بعض أعضائها لتغير جنس معيشتها، كذلك حلزون الماء الذي كان له قوقعة كلسية فتعرى من قوقعته إذ صار حلميا يتغذى على حيوانات أخرى فذلك نتيجة الانتخاب الطبيعي لأن القوقعة النافعة له في الحالة الأولى غير نافعة له في الحالة الثانية بل أضرته و لم تزده إلا ثقلا بلا معنى، إذا فالجزء الذي لا يعود فيه فائدة يفقد رويدا رويدا[2].

لذلك يعتقد شميل بأن داروين يرى أن الانتخاب الطبيعي لا يؤدي إلى الارتقاء دائما و إن أدى إليه غالبا و أن الارتقاء كثيرا ما له حقيقة واضحة فالانتخاب لا يكون في كل قوته إلا حيث يكثر ازدحامالأحياء المتنازعة و لهذا السبب كان وقوف بعض الأنواع ة ارتقاء البعض الآخر كالحيوانات الرخوية الدنيئة التي لم تزل واقفة على درجة واحدة في سلم الحياة منذ زمن طويل جدا، و هكذا غيرها ممن لم تتغير إلا قليلا جدا، و ربما كانت صورة قريبة منها موجودة لكنها ارتقت سريعا و لم تبقى أصولها فلماذا لا يزال الكثير من الصور غير كاملة و دنيئة جدا في مدا الأدوار الجيولوجية على رغم الانتخاب الطبيعي، و قد كاد مذهب داروين يضعف من أجل ذلك لولا أنه وافوه بالتحليل الشافي من هذا القبيل[3].

كما يرد داروين على من يرى عدم ارتقاء كثير من الصور الحية تخطئة لمذهبه ما معناه أن كثير من الحيوان بل غالبه فيه أعضاء مورثة لا فائدة لها و قد تكون مضرة لاختلاف أحوال الوارث عن الموروث مثل رجلي الفرقاطة فإنها في غناء عن الغشاء بين الأصابع لأنها لا تعوم كأجدادها الذي كان مثل هذا الغشاء لازم لها و أمثال ذلك كثيرة جدا في الحيوان و النبات، و أيضا فالإنسان فيه بقايا كثيرة من طائفة ذوات الثدي الذي هو

[1] شبلي شميل، فلسفة النشوء و الارتقاء، المصدر السابق، ص: 115.

[2] المصدر نفسه، ص: 117.

[3] المصدر نفسه، ص: 118.

منها ولا فائدة لها كعظم العصعص و عظم ما بين الفطين الذي اكتشفه و الزوائد الدودية في القناة الهضمية، يمكن لهذه الأشياء أن لا تتفق مع المذهب القديم أي مذهب الخل بل هي منافية له و ربما عبثت بعلم اللاهوت.

أما في مذهب داروين فمعناه واضح و هي من أعظم الأدلة على صحته و بدونه يستحيل علينا أن نفهم لماذا الإوز الذي لا يعوم له غشاء بين أصابع رجليه و لماذا كان في الأجسام الحية أعضاء زائدة بلا معنى أحيانا، فلو لم تكن الأحياء مرتبطة ببعضها البعض من أدناه إلى أعلاه ارتباطا جوهريا لما اقتضى أن يكون بينها ذلك[1]. كذلك فداروين لم يحصر الأحياء في أصل واحد فجعل الحيوان من أربعة و خمسةأصول أولى مخلوقة من زمان طويل، كل أصل زوج، و كذلك النباتات.

و بعد كل هذا ما قدمه شبلي شميل عن شرحه للانتخاب الطبيعي عند داروين فهو في الأخير يبدي رأيه المتمثل في أنه لا ينبغي أن نطمع أبدا في تركيب أحياء بالغة مبلغا عظيما من الارتقاء لأن مثل ذلك عمل شاق جدا عملته الطبيعة ولم تتمه إلا في زمان طويل جدا في ملايين من السنين.

[1] شبلي شميل، فلسفة النشوء و الارتقاء، المصدر السابق، ص: 120.

ثانيا: آراؤه في العالم الطبيعي.

I. الزيولوجيا علم الحيوان وفق النظرية التطورية:

من المعلوم أن داروين بحث في نشأة الأنواع الحية حتى توصل إلى استنتاج أن تلك الأنواع الحية لم تخلق بصورة مستقلة عن بعضها البعض ولكنها قد انحدرت عن أنواع أخرى وعلى ذلك تبدأ نظرية التطور عند داروين من خلال ما لحظته الاختلافات بين أفراد النوع الواحد حيث تتشابه جميع أفراد أي نوع من أنواع الحيوانات تشابها تاما إذ توجد بعض الاختلافات الفردية. فالإنسان مثالا هو نوع من أنواع الحيوانات تتشابه أفراده تشابها تاما إذ يوجد منه الذكي والغبي والقبيح والوسيم والطويل والقصير وفي رأيه أن هذه الاختلافات البسيطة بين أفراد النوع الواحد هي سبب عملية التطور في الطبيعة، حيث إن تلك الاختلافات إذا كانت مفيدة للكائن الحي ولظروفه الطبيعية في الحياة فإنها سوف تصبح بشكل عام متوارثة عن طريق الأنسال.

و عليه يرى شميل أن جميع الكائنات الحية تتزايد بمعدل كبير فكل كائن حي ينتج أثناء مدة حياته الطبيعية العديد من البيض أو البذور وهذا التزايد الكبير قد يصبح فيما بعد مشكلة حيث يتم إنتاج أفراد أكثر مما يحتمل أن يعيش على الكرة الأرضية وعلى ذلك لا يمكن للعالم أن يسع هذا الكم الهائل من الكائنات.[1]

و عليه فهناك ثبات نسبي لهذا التزايد الهائل للأنواع لذلك يتوصل داروين إلى سبب ذلك وهو فكرة» الصراع من أجل البقاء«. وبناء على ذلك يتوصل إلى أن الصراع من أجل البقاء هو نتيجة حتمية للمعدل الكبير لتكاثر الكائنات الحية فبما أن الكائنات الحية تنتج أفرادا أكثر مما يحتمل أن تعيش فالبد أن يوجد صراع من أجل البقاء وهذا الصراع يكون بين أحد الأفراد مع فرد آخر من النوع نفسه أو مع الأفراد التابعين لنوع مختلف أو مع البيئة الطبيعية المحيطة بالكائنات الحية. وهكذا يتبنى داروين نظريته على أساس أن الأفراد في النوع الواحد تختلف فيما بينها بعض الاختلافات وأن الأفراد التي تتمتع باختلافات مفيدة وفي صالح النوع هي التي يكتب لها البقاء أثناء عملية الصراع من أجل البقاء وكذلك بالمثل فإن أي اختلاف قد يكون مضرا بالكائن الحي ولو بدرجة قليلة سوف يؤدي إلى هالك الكائن الحي وفنائه فسوف يتم تدميره بصرامة في المعركة الهائلة والمعقدة من أجل الحياة وعلى ذلك لا يبقى في النهاية سوى الأفراد القوية ذات الصفات الجيدة من الناحية البيولوجية التي يتم توارثها في الأجيال التالية لها وهذا الحفاظ على الاختلافات والمتمايزات الفردية والتدمير للاختلافات والمتمايزات الفردية الضارة هو الذي يطلق عليه بالانتخاب الطبيعي أو البقاء للأصلح[2]

[1] شبلي شميل، فلسفة النشوء و الارتقاء، المصدر السابق، ص: 117.

[2] إسماعيل مظهر، مقدمة أصل الأنواع لدارون، المرجع السابق، ص: 49

إن التطور عند داروين يحدث من خلال ظهور اختلافات فردية بين الكائنات الحية ونتيجة الزيادة الهائلة في معدلات التكاثر بين الكائنات والذي ينتج عنه صراع شديد بينهم من أجل الحياة مع الأخذ في الاعتبار أن تلك الاختلافات الفردية بين الكائنات إذا كانت مفيدة لها فإن تلك الكائنات سوف يكون لديها أفضل فرصة لكي يتم الاحتفاظ بها في أثناء التنازع من أجل البقاء ونتيجة لهذا المبدأ القوي الخاص بالوراثة فإن هذه الكائنات هي التي سوف تميل إلى إنتاج ذرية متميزة عن الأجيال السابقة لها وهذا المبدأ الخاص بالحفاظ أو البقاء للأصلح هو الذي يطلق عليه داروين مصطلح الانتخاب الطبيعي[1]

وبناء على نظرية التطور عند داروين ورأيه في نشأة الكائنات الحية من بعضها البعض فإن الحيوانات لها أصل واحدو **هولم** يفترض آراءه في نظريته كما فعل السابقون عليه بدون تقديم شواهد وأدلة تؤيدها وقام بتدعيمها بمجموعة من الشواهد والأدلة العلمية مثل: علم التشريح المقارن والأعضاء الأثرية وعلم الأجنة المقارن وعلم الحفريات وغيرها من الأدلة والشواهد العلمية لذلك نورد بعض أهم تلك الأدلة العلمية:

أ. علم التشريح المقارن:

يستمد داروين أول الأدلة من دراسة علم التشريح المقارن للحيوانات إذ تتشابه جميع الحيوانات في أن أجسامها مكونة من مادة البروتوبالزما على هيأة خلايا وهذه الخلايا تتشابه في تركيبها العام في جميع الكائنات الحية ويتجمع عدد من هذه الخلايا ليكون نسيجا من الأنسجة ويتجمع عدد من الأنسجة ليكون عضوا من الأعضاء وتتشابه هذه الأنسجة والأعضاء إلى حد كبير في العديد من الحيوانات فأنسجة الكبد والمعدة مثال في حيوان مثل الأرنب التي تختلف كثيرا عنها في أرقى الحيوانات جميعا وهو الإنسان فجميع الثدييات وعديد من الحيوانات الأقل رقيا من الثدييات تخضع إطار عام أو أسلوب واحد من التراكيب تشترك فيه جميعا مما قد يوحي بانحدار جميع هذه الحيوانات من أصل مشترك. وهكذا يلاحظ داروين أن الإنسان يتشابه في صفاته التشريحية مع القرود الشبيهة بالإنسان الأمر الذي يؤكد انحدارهما من أصل واحد مشترك فنجده يقول: إن الإنسان مشيد على الطراز نفسه أو النمط العام مثل الحيوانات الثدية الأخرى فالعظام الموجودة في هيكله العظمي من الممكن مقارنتها مع العظام[2].

[1] إسماعيل مظهر، مقدمة أصل الأنواع لدارون المرجع السابق، ص: 55.

[2] زينب عبد الرحمن، نظرية التطور في الفكر العربي الحديث، دار مصر العربية، ص:23.

ب. الأعضاء الأثرية:

تعتبر الأعضاء الأثرية دليلا ثانيا على نظرية التطور وهي تلك الأعضاء الضامرة التي لم تعد تؤدي أية وظيفة. فهي أعضاء كانت ضرورية وكانت تؤدي وظائف حيوية في أسالف الحيوانات ولكنها ضمرت وفي طريقها للزوال في الحيوانات التي جاءت بعد ذلك عندما لم تصبح لها ضرورة.

وبناء على ذلك لابد من التنبيه هنا إلى أن الأعضاء الأثرية غير المكتملة عند داروين تعني نقص في سريان الدم إلى أحد الأعضاء الجسدية فيقول داروين: مصطلح عدم الاستخدام لا يرتبط بمجرد التقليل من حركة العضلة ولكنه يتضمن النقصان في سريان الدم إلى أحد الأجزاءأحد الأعضاء الجسدية نتيجة لتعرضه لتناوبات أقل في الضغط أو نتيجة أنه قد أصبح بطريقة ما أقل نشاطا عن المعتاد[1].

ولكي نستطيع أن نفهم الوجود الخاص بالأعضاء الجسدية الأثرية غير المكتملة فليس علينا إلا أن نفترض أن أحد الجدود الأعليين قد كان يمتلك تلك الأجزاء محل التساؤل وهي في حالة كاملة وأنه قد حدث تحت تأثير الاختلاف في سلوكيات الحياة أنها قد أصبحت مختزلة بشكل كبير.

ت. علم الأجنة المقارن:

والدليل الثالث على نظرية التطور يأتي عن طريق علم الأجنة المقارن فجميع الحيوانات عديدة الخلايا يبدأ تكوينها عند اتحاد الحيوان المنوي بالبيضة فتكون الخلية الملقحة المسماة بالزيجوتzygote وكل زيجوت ألي نوع من الحيوانات ينتج في النهاية حيوانا مشابها للحيوان الذي تكون فيه وفي أثناء النمو الجيني يمر الجنين بأطوار معينة تتشابه في جميع أجنة الحيوانات المختلفة فتتشابه جميع أجنة الفقاريات في مراحلها الأولى المبكرة ويتشكل الجنين بعد ذلك ليكون نوعا معينا من الحيوانات. فالأطوار الجنينية الأولى للسمكة والضفدعة والسلحفاة والدجاجة والخنزير والبقرة والأرنب والإنسان الا يمكن التمييز بينها بسهولة في المراحل الجنينية المبكرة وهذا يدل على أن التخطيط التركيبي متماثل فيها جميعا ولكنها عندما يتقدم تكوينها الجيني تتميز عن بعضها تدريجيا لتصبح سمكة أو ضفدعة أو سلحفاة.[2]

[1] تشارلز داروين، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، تر، مجدي محمود المليجي المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص: 91.

[2] إسماعيل مظهر، ملقى السبيل في مذهب النشوء و الارتقاء، ج1، دار المقتطع، مصر، ط1، 1923، ص: 58.

ث. علم الاحافير:

الدليل الرابع على نظرية التطور مستمد من علم الأحافير والحفرية هي ما دفن من بقايا الكائنات الحية في العصور الماضية ضمن الرواسب التي تكون الصخور الرسوبية في القشرة الأرضية فالسجل الحفري هو مصدرنا الوحيد للمعلومات بشأن تاريخ الحياة، و من اجل تفسير هذا السجل بشكل صحيح، يجب فهم الكيفية التي تكونت بها الحفريات و الكيفية التي يدرس بها العلماء تلك الحفريات حين يموت نبات أو حيوان أو ميكروب، تتحلل الأجزاء الرخوة من جسده بسرعة، فقط في البيئات غير المعتدلة مثل المناخ الصحراوي الجاف أو المواد الحافظة الموجودة في قطعة من الكهرمان، تكون الميكروبات المسئولة عن عملية التحلل عاجزة عن تفتيت الأجزاء الرخوة.[1]

ولقد كان داروين أول من أشار إلى أن الأحافير دليل على صحة التطور المستمر أي انحدار الحيوانات من حيوانات سابقة لها. وقد تكون الحفرية عبارة عن الكائن نفسه بجميع أجزائه كحفريات النمل والبعوض وغيرها من الحشرات التي نجدها محفوظة ومتحجرة في الكهرمان وهو في الأصل صمغ تكون في العصور القديمة كما يتكون الصمغ الآن ثم التصقت به هذه الحشرات ودفنت فيه فبقيت على مر العصور محتفظة بشكلها دون أن تتلف ثم تعرض الصمغ بعد ذلك لضغط وحرارة عالية جعلته يتحجر ويتحول إلى الكهرمان المعروف والحفريات عادة عبارة عن بقايا الأجزاء الصلبة الهيكلية فقط بعد تحلل الأجزاء الرخوة للحيوان كما أن الحفرية قد تكون مجرد طابع تركه الكائن الحي فوق الصخور التي كان يعيش عليها عندما كانت رخوة ثم تحجرت واحتفظت بذلك الطابع فوقها.

[1] برايان تشارلز وورت و ديبورا تشارلز وورت، التطور مقدمة قصيرة جدا، تر، مُحَمَّد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ص: 55.

II. الأنثروبولوجيا، علم الإنسان وفق النظرية التطورية:

يرى شبلي شميل أن الأشياء موجودة في الكون منذ الأزل و ستبقى إلى الأبد في حركة تحول دائمة أو ما يسميه التطور, فهو الانتقال من حال إلى حال. و في كل مرة تتدرج الأشياء و تتغير فتأخذ شكل جديد مختلف عن الشكل الذي سبقه و هذا التطور إنما يعود لقوة تكمن في أصلالمادة ,ويستمر هذا التطور إلى ما لانهاية بدون انفصال كل شكل يرتبط بالشكل الذي سبقه في علاقة تسلسل, و ينبثق عنه فيأخذ شكلا أخر و في كل مرحلة شكل جديد تصبح الأشياء أكثر تعقيدا فتكثر صفاتها و تتبدل خصائصها و تزداد أهمية. فيشكل لنا الأشياء (نبات، حيوان،إنسان،معادن...الخ) ،حيث أن الإنسان أرقى ما يتوصل إليه التدرج من الكائنات و أسمى ما ينتج عن تكون المادة في طريقها التسلسلي عبر الزمن ،فهو قمة التطور القادر على تسيير كل الكائنات الحية الأخرى وفق مصلحته الخاصة و مشيئته ، وكأن الكون كله مسير لخدمته ، فقد عرف الإنسان منذ القدم بسيادته على باقي الكائنات . ولا يسعنا إلا أن نذكر الأهمية الكبرى التي أعطاها شبلي شميل الإنسان و فكره ليس كروح بل كجسد تشكله المادة عبر السنين ليصبح بالصورة التي هو عليها .

و هو ما ذكره داروين عن أن جميع الكائنات متطورة، و تشد أنواعها و أجناسها صلات قربى وطيدة ، و أنها لم تصل إلى ما هي عليه في شكلها الحاضر و بناؤها الحالي إلا بعد تطورات كثيرة في شكلها الخارجي و بنيتها الداخلية منذ أزمنة سحيقة و عبر ملايين السنين .مفسر ذلك بقوله: نظرا إلى أنه يولد من إفراد كل نوع عدد يزيد عما يكتب له البقاء ،ولما كان هناك بالتالي صراع من اجل البقاء يتكون باستمرار ،فإنه يترتب على ذلك أن أي كائن لو تغير بطريقة طفيفة على نحو يفيده في ظل الأوضاع المعقدة للحياة ،التي ينتابها التغير في بعض الأحيان مثل هذا الكائن سنكون له فرصة أفضل للبقاء، ومن ثم يصبح من الكائنات التي يجرى عليها الانتقاء الطبيعي.

1) في أصل معرفة الإنسان :

إن من أهم آراء شبلي شميل في معرفة أصل الإنسان، هو أن الإنسان في بدايات ظهوره كان يعيش في الأوهام، فكانت من أعظم أسباب شقائه، حيث تجلت هذه الأوهام في اعتقادين أولهما كان رؤية الإنسان القديم الأرض أنها مركز الكون تدور حوله الأفلاك، و ثانيا اعتقاده أنه من أصل سماوي، فأهبطه الخالق من فسيح جناته و أسكنه ضيق أرضه. وعلى هذين الاعتقادين نشأ الإنسان في الأخلاق و العادات.[1]

[1] شبلي شميل، الحقيقة، المصدر السابق، ص: 24 بتصرف.

ولكن في عصر كوبرنيكوس و غاليلي و كيبلر سحقوا بعلمهم أوهام الأقدمين، فبالنسبة لشبلي شميل قد أصلحوا علم الهيئة من هذا الخطأ، حيث يقول: قرروا أن السماوات ليست قبة زرقاء مرفوعة فوق الأرض مرصعة بمسامير من ذهب و أن الجلد ليس فاصل يفصل المياه التي فوق الجلد عن المياه التي تحت الجلد... و أن العوالم خاضعة في مجراها لسنن ثابتة لا معلقة تمسكها يد خفية و تديرها كما تشاء[1] . يقصد الشميل من قوله أن الإنسان قديما كان يعيش في الخرافات و الأساطير كي يتقبل و يتأقلم مع تلك الظروف و الظواهر الطبيعية كالزلازل و البراكين... فاختلق الآلهة لكي يزيل ذلك الخوف من هته الظواهر، إلا أنه مع تقدم الزمن و تطور فكر الإنسان ظهر علماء خاصة علماء الفلك الذين أظهروا أن هناك العديد من الأفكار الخاطئة كدوران الكواكب حول الأرض. بالرغم من الموانع و الاضطهاد الذي تعرض له المفكرون و العلماء، إلا أن ته الأفكار وجب عنها ثورة في تاريخ الإنسان فيقول شميل: فشمر الإنسان على ساعد الجد و أرسل طرفه إلى الأفلاك يجليها نواميسها و يستقصيها مادتها و يستكشفها أسرارها، فانجلت له غوامض الطبيعة، و انكشفت له أسرار الكيمياء و عرف المواد و العناصر و ما لها من الشرائع و انكشفت له أسرار البيولوجيا و برزت دفائنالبلنتولوجيا* فسأل عن أصل الحياة في آثارها [2].

أي أن العلم الطبيعي له دور كبير في معرفة أصل الإنسان، خاصة بعد أن انكشفت أسرار البيولوجيا فبعد انكشاف هذه الأسرار أصبح للإنسان مساحة لكي يسأل عن أصل الحياة في آثارها .

حيث يقر شبلي شميل: إن الفصل في معرفة أصل الإنسان راجع إلى لامارك و داروين اللذان ردا الإنسان الهابط من السماء و الذي لا يزال يصبو إليها إلى مقامه الحقيقي في الطبيعة ، و لما انتشر هذا المذهب قامت عليه قيامة أهل التقليد الكارهين لكل مستجد و إن كان صواب.[3] فبالرغم من أن هذا المذهب كان مرفوضا من قبل التقليديين إلا أنه لاقى انتشارا واسعا، حيث قال أن الحركة التي أثارها ـ المذهب الداروينيـ في الخواطر ليس لها مثل في تاريخ الإنسانية و قد ظهرت مفاعيلها، و ينتظر منها الشيء الكبير في المستقبل.

فبالنسبة له لا يقتصر هذا المذهب على تقرير الحقيقة بل يهدف إلى تغيير الإنسان للأفضل بحيث يتجدد الإنسان حتى يصبح وجوده جديد فيتغير من كل النواحي، في فلسفته، في سياسته، في الشرائع والحكومات وما إلى ذلك...

[1] شبلي شميل، الحقيقة، المصدر السابق، ص: 25.

[2] المصدر نفسه، ص:26.

[3] المصدر نفسه، ص: 26.

فنظرية داروين لوجود أصل مشترك لديها آثار مذهلة، فالبشر ليسوا منفصلين عن بقية الطبيعة، و لكننا أيضا مختلفين بشكل واضح عن غيرنا من المخلوقات، فنظرية النشوء و الارتقاء في نتاج الثقافة البشرية التي هي في حد ذاتها علامة على الاختلاف .[1]

و للإنسان أيضا بالنسبة شبلي شميل له صفات، و هته الصلات لا تنمو إلا إذا استقامت بالعلوم الحقيقة و المبادئ الصحيحة و معوجة إذا تعوجت بالمبادئ الكاذبة [2] أي أن الإنسان إذا كانت له مبادئ صحيحة يصبح صحيح الحكم، و إذا كانت مبادئه فاسدة فمن الطبيعي سيفسد حكمه، حيث أن شبلي شميل يعتبرها مسلمة لا خلاف فيها حيث يقول:نعم إن صلاح الهيئة الاجتماعية صلاحا تاما عاما لا يكون إلا إذا كان العلم الصحيح تاما عاما، ولا بد منه يوما ما، إلا أن ذلك الزمان بعيد جدا و ربما لزم له مئات من الأجيال.[3] يقصد بذلك أن إزالة ما ترسخ في العقل من مبادئ ليس بالأمر السهل،لأن انتقال الإنسان من الجهل التام إلى العلم التام يستحيل في نظام هذا الكون دفعة واحدة، لأن بنظر شبلي شميل أن الإنسان لم يوجد كما هو الآن دفعة واحدة بل كان يسير ببطء في ارتقاء درجة الكمال و اقتضى من السنين حتى خرج من الحيوانية إلى الإنسانية، و هذا أيضا ما يشبهه شبلي شميل بحياة الإنسان الأدبية حيث قال: لا بد له من قطع المسافات البعيدة التي تفصل بين أحواله الأدبية من السير البطيءالمتمهل.[4]

و منه فحسب شبلي شميل في كتابه نظرية التطور و أصل الإنسان تحدث عن ظهور الإنسان بأن العالم أصابته عصور جليدية، كان البرد ينتشر فيها في عدة أمكنة و معتدلا في عدة أمكنة أخرى، فكانت الأحياء التي لا تستطيع مكافحته تموت و تنقرض و كانت هذه العصور الجليدية بمثابة امتحان شاق إلا لذو حيوية قوية أو العقل الذكي أو القانع بالطعام[5].

أي أن هذا العصر قد أهلك معظم الكائنات و بسببه انقرضت إلا من استطاع المقاومة و التعايش معه، و بالنسبة إلى شبلي شميل فإن العصر الجليدي الأخير هو الذي انتهى بظهور الإنسان، و هذا العصر لا تزال بقاياه الباردة في جو أوروبا البارد و قمم جبال الألب، و هي مغطاة دوما بالثلج صيفا و شتاءا، ففي العصر الجليدي الأخير قد أتيحت فيه الفرصة للحيوانات أن تتنازع بعقولها، لأن الدماغ كان قد بلغ حجما لا يأبه

[1] جوني بيير، داروين الآن، متحف العلوم بلومفيلد، تر، عرين حسين الجامعة العبرية جفعات رام، القدس، إسرائيل ص: 36.

[2] شبلي شميل، الحقيقة، المصدر السابق، ص: 27.

[3] المصدر نفسه، ص: 27.

[4] المصدر نفسه، ص: 27.

[5] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، المصدر السابق، ص: 133.

به، و اتسع أدراك الحيوان و تضاعف حجم الدماغ مما يدل على أن النزاع قائم على الدهاء و القدرة على الاستنباط، فحسب شبلي شميل العصر الجليدي جعل الحياة شاقة، بقلة الطعام، بالرغم من ذلك مطالب الجسم زادت بزيادة البرد، نتيجة هذا خرج الإنسان سيد للكائنات في هذا العصر لأنه أكبرها دماغا، و هو لا يزال كذلك، فيقول شميل في ذلك: فليس في العالم الآن حيوان له دماغ في قدر دماغنا أو أكبر منه سوى الفيل و القيطس، لكن دماغ كل منهما بالنسبة إلى أجسامهم اصغر من دماغنا بالنسبة إلى جسمنا، أما دماغ الجاموس و البقر و الجمل فأصغر من دماغنا نسبة و إطلاقا مع ضخامة أجسام هذه الحيوانات[1]. بالنسبة لشبلي شميل لم يكن الدماغ وحده العامل الوحيد في سيادة الإنسان، فمثلا لو فرضنا أن دماغ الثور مثل دماغ الإنسان هل يستطيع بدماغه فعل الشيء العظيم؟ لا أظن...

يؤكد شبلي شميل أن الإنسان قد تفوق بثلاثة أشياء:

- أولها أننا كنا نعيش قبل العصر الجليدي على الأرض، نفترش غصونها وبسبب هذا قويت فينا حاسة النظر،والنظر أكثر الحواس تذكية للعقل[2].

أي أن النظر هو الذي يساعد على حدة ذكائنا لأننا كما نعلم النظر يجمع عدة صور أمام الذهن، ويفسح له المجال نحو التصور.

- ثانيهما بالنسبة له أننا كنا نتسلق الأشجار و هذا أدى إلى نشوء أيدي ممسكة و بهذه الأيدي صرنا نستطيع أن نمسك بها الآلات و نصنع بها الحضارة ، لأن الحضارة تحتاج إلى الآلات لكي تتطور

أي أن الإنسان لو لم تكن له أيدي عبر تسلق الأشجار لما وصل إلى هذه المكانة من بين كل الكائنات الحية، فمثلا لو كانت الحيوانات مثل البقرة أو الأسد كانوا محرومين من أيدي مثل أيدينا لما انتفع بعقله، لأنه لو كانت لديهم أيادي وعقل لصنعوا الآلات.

- ثالثا أن لنا لسان ينطق، هذا ما أكده شبل شميل حيث قال: لولا هذا اللسان لما انتفعنا بأيدينا و عقلنا لأننا كنا نشبه جماعة من الخرس يعيشون معا [3]أي أن الذي ساعد الإنسان على التفوق هو اللسان فهو وسيلة التواصل الأمثل للإنسان.

بالرغم من الأسباب التي جعلت الإنسان يرتقي و يتفوق على الكائنات الأخرى إلا أننا لا نستطيع الجزم بالمكان الذي نشأ فيه الإنسان، فيرجع شبل شميل أن هذا الإنسان نشأ في مكان بارد و الذي جعله يفكر في

[1] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، المصدر السابق، بتصرف، ص: 134.
[2] المصدر نفسه، ص: 134.
[3] المصدر نفسه، ص: 135.

هذا الترجيح أن الحيوانات التي استطاعت أن تتأقلم مع العصر الجليدي هي التي كانت تعيش في مكان بارد قبل مجيء هذا العصر.

2) السلالات البشرية:

أسود، أبيض، صغير، كبير، مجعد أملس، بني أزرق، تغيرات جينية بسيطة تؤثر في كل الاختلافات التي بيننا، لكن لنتتبع تاريخ أسلافنا يدرس علماء الحمض النووي الذي يبقى نفسه لفترة طويلة جدا، و بسبب هذا الحمض النووي تعددت الآراء و النظريات حول سلالات الإنسان، حيث تحدث شبلي شميل عن نظرية الدكتور كروكشانك الذي ألفها في كتاب يدعى "الماغولي بين ظهرانينا" التي تنص على أن هناك ثلاثة أوجه بشرية هي الوجه الماغولي و الوجه الزنجي و الأوروبي، و أن الوجه المغولي يشبه وجه قرد جاوة المسمى أورانج أوتان و أنه حين يفقد عقله يدنو نحو الأورانج في جملة عاداته و أحواله، و كذلك الأوروبي حين يفقد عقله وجن بنوع خاص من الجنون قعد بهيئة الشمبنزي، أما الزنجي فيعود بجنونه إلى الغوريلا[1]. أي أن في نظر شبلي شميل و كروكشانك أن الإنسان وقت الجنون يرد الإنسان إلى أصله.

و بالنسبة لشبلي شميل أن المؤلف لا يقصد أن الإنسان ثلاثة أنواع كل منها ينتسب إلى أحد القردة العليا الموجودة الآن إنما يريد أن يثبت قرابة الإنسان لهذه القردة و أننا و هي من أصل واحد، و مما لا شك فيه أن لنا عدة أصول و من المرجح أنها اختلطت بنا و تسربت لنا طبائعها، و أيضا فالبيئة لها دور كبير في ملامحنا فتركت فينا أثرها، فمثلا الوجه الأمرندي ـ سكان أمريكا قديما ـ مستطيل و الأوروبيون الذين هاجروا إلى أمريكا قد استطالت وجوههم لعلة لا نعلمها، و أيضا أنف الأوروبيون مستدق بينما نجد أنف الزنجي مفنطس مفرطح لأن الهواء بارد في أوروبا و هو حار في إفريقيا لأن الهواء يتمدد في إفريقيا و يتقلص في أوروبا، لأن جسم الأوروبي يحتاج إلى كمية من الأوكسجين تساوي ما يحتاج إليه الزنجي، لأن حجم هذه الكمية كبيرة في إفريقيا، فالزنجي في حاجة إلى أن يتسع أنفه حتى يأخذ من الهواء الكمية التي يحتاج إليها، مع جرمها الكبير المتمدد.
أما في أوروبا يحتاج الهواء يحتاج إلى أن يدفأ قبل أن يصل إلى الرئة، و منه هنا استدق أنف الأوروبي و إنفطس أنف الزنجي، و أيضا نجد الصيني أصفر البشرة لرطوبة بلاده و حرها.
وكذلك شعر الزنجي مفلفل بفعل الحرارة بالأغلب فإننا إذا عرضنا شعرة مستقيمة للحرارة انكمشت.
تمثل هذه مجرد نظريات، فما زال التنقيب يكشف لنا عن أنواع قديمة لا يمكن أن يقال أنها بشرية ولا يمكن كذلك أن يقال أنها قرديه، و هذه الأنواع كانت تعيش إلى ما قبل مليوني سنة، فيقر شبلي شميل أن العامل

[1] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، المصدر السابق، ص: 169.

الوحيد في تغير الحيوان و تطوره هو التغير و التطور الحاصل على مستوى بيئته، على توالي الألوف من السنين، فتتغير أعضاؤه و تتخذ وظائف جديدة ثم تتراكم و تتغير حتى تظهر سلالات جديدة ثم أنواع جديدة، حيث تغير الوجه كما تغيرت القامة البشرية، فالإنسان الحاضر نوع واحد يتلاحق و يخصب مهما تباعدت السلالات التي تختلف في الملامح و التفاصيل لأنها عاشت في أقاليم مختلفة حرا و بردا و رطوبة و جهدا.

و أيضا يتحدث شبلي شميل عن ألوان الأجسام البشرية و يقول أنها تخضع للوسط، فحيث تكون الرطوبة و الحر معا يكون لون البشرة أصفر، و هذا ما يحدث للصينيين و سائر الأمم التي تعيش في الأقاليم التي تقع في الشرق الجنوبي من آسيا.

أما في أوروبا فإن البشرة تكاد تكون شفافة لذلك يبدو الدم الأحمر تحتها واضحا، و هذا ما يخص الحالة الفيزيولوجية للإنسان.

كذلك قد تطرق شبلي شميل لموضوع الجماعات البشرية، حيث أن تجمع الأفراد في الجماعات يجعل الحصول على القوت أمر شاقا، كما يتسبب الحصول على هذا الأخير تنازع و صراع بين الأفراد، لكن هذا الاجتماع ضروري للاحتماء من العدو أو لصيد الحيوانات الكبيرة، لأن في الإتحاد قوة لا تتاح للفرد[1] وللحصول على القوت قضى الإنسان مئات الألوف من السنين يعيش على الترحال يأكل الفواكه البرية، يصيد ما يستطيع من الحيوانات،

و هو كذلك مضطر لدفع شرور كثيرة عنه مثل الجوع و العطش و البرد و عدوان بعضه على بعض و عدوان الحيوانات الأخرى التي يساكنه أرضه و تنازعه الحياة فيها و لمقاومة قواصر أخرى كثيرة. و محتاج كذلك لمواد وآلات يتقي بها هذه الشرور كالقوت و الكساء و المساكن و الأسلحة و ير ذلك مما يقتضي أعمالا كثيرة فإن كان منفردا فهو لا يستطيع القيام بها جميعا لأن كل عمل منها يستغرق فيه حياة كاملة و قد لا تفي بجزء منه فهو لا بد له من الاجتماع و تقاسم الأعمال حتى يتم له التعاونبحيث يكون منه الزارع و الصانع و الجندي و الوازع و المخترع و الحكيم و حتى ينتظم وجوده و يحسن حاله.[2]

و كان الأولاد ينتسبون للأم، لأن الإنسان لم يكن يعرف أن الرجل ضروري للتلاقح و كان يعتقد أن الاتصال الجنسي لا يقصد منه إلا اللذة وأن لا علاقة له بالتناسل و لهذا السبب كانت جميع الأمم القديمة تنتسب إلى الأم، و دائما ما تكون القبيلة مرتحلة فإن النظام يبقى أمويا، أيضا كانت هناك مجتمعات تتزوج فيها المرأة جملة

[1] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، المصدر السابق، ص: 137.

[2] شبلي شميل، مجموعة الدكتور شبلي شميل،ج2، دار المعارف، مصر، 1910م، ص: 22.

من الرجال فلا يعرف الأولاد لهم أبا وإنما يعرفون الأم فقط، حيث تحدث شميل عن قبائل في جزيرة توريان من جزر البحر الجنوبي بين استراليا و آسيا تعيش على النظام الأممي إلى الآن، فالسكان ينتسبون إلى الأم أو الأخوال، لكن ليس للأب أي علاقة بالأولاد، و علاقته الجنسية بزوجته هي تناسل فقط ليس إلا، إلا أن المجتمع الأبوي نشأ بعد استقرار الزراعة، لأن الزراعة جمعت الأب و الزوجة و الأولاد و الماشية في مكان لا يتغير، و صار هو الرأس الذي يحكم و يتحكم و صار في مكان الأم.

وبارتقاء المجتمع صارت صفات الارتباط بين العائلة وصفات الارتباط بين القبيلة ترتبط في كلمة واحدة هي الرحم، وتبدأ طفولة الإنسان تبلغ من ثمانية عشر سنة إلى عشرين سنة يحتاج فيها إلى معونة الأبوية[1].

أي أنه بالنسبة لشبلي شميل، فالمجتمع البشري الأول كان عائليا فقط وكانت هته العائلة تتميز بالترحال لأن المجتمع في ذلك الوقت لم يعرف الزراعة التي تدعو إلى الإستقرارو بسبب هذا كانت العائلة تتكون من الأم و أولادها فق. فصحيح أن الزوج كان يرافق الم بعض الوقت لكنه كان يتركها تتخذ زوجا آخر ترحله معها هي و أولادها، و هذا النظام جعل من الأولاد ينتسبون إلى الأم لأنها هي الباقية معهم دون الأب في التراحم و جهل الإنسان البدائي في حقيقة التناسل لاعتقاده أنه غير ضروري للتلاقح.

هذه الأزمنة كانت سحيقة، كما الحال في القبائل القديمة،وكذلك كانت الأم تموت وتترك الأولاد فتبقى الرابطة بين الإخوة لأنهم يعيشون معا. ولما عرفت الزراعة واستقرت العائلة في مكان واحد صار الزوج واحد لا يتغير لأنه ارتبط بالزراعة والماشية والأولاد، في حين أن الترحال القديم كان يفكك العائلة ويجعل الزوج يضرب في تجواله.

[1] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، المصدر السابق، ص: 175.

3) أصل اللغة:

تعد اللغة من أهم مميزات الإنسان الاجتماعية و الحضارية و الإنسانية، فهي ظاهرة فكرية عضوية خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات، فهي صفة مميزة للجنس البشري[1]، فهي تميز الإنسان كونه من خلالها هو الوحيد الذي يتمكن من ترجمة أفكاره و مشاعره إلى ألفاظ و عبارات مفهومة مع أبناء مجتمعه[2]،

فبالنسبة لشبلي شميل أن الإنسان لولا الكلام لما اختلف كثيرا عن البهائم إذ كان كل فرد يحتاج إلى أن يخترع المعاني اختراعا، في حين أننا نتسلمها الآن من سائر الناس بما وضعوا لها من كلمات[3].

يقصد هنا شبلي شميل أن الكائن البشري ما يميزه عن الكائنات الأخرى هو النطق بالحروف و الكلمات لها معاني يستطيع أن يتواصل بها مع غيره من الأشخاص، إلا أن شبلي شميل يعتبر أن الإنسان لو كان يمشي على أربعة لما استطاع أن يحمل دماغا ثقيلا ولم يكن سيعرف الأدوات و الآلات التي يتداولها لكي يتطور، ولو كان يتناول طعامه مثل الحيوانات لطال هذا الفم و ضاق فيصعب عليه حين إذن الكلام، و هنا يريد شبلي شميل توضيح فكرة أن الإنسان لو كان يشبه الحيوان في طريقة أكله أو في مزايا جسمه لما كان قد استطاع الكلام أو التفكير، حيث يذكر في نشأة اللغات الأولى أنها لم تكن على الكلمات وحدها، بل يعتبر أن الإشارات لها الشأن المهم في التفاهم ولا نزال للآن نستعمل هته الإشارات التي نريد بها معاني لكلماتنا، و قدم مثالا في هذا، و تحريك الحاجبين و رفع الرأس، فبالنسبة له كل هذه الحركات لها معنى[4] .

أي أن هذه الإشارات التي يتحدث عنها شميل تعم معناها في جميع الأمم، كهز الرأس يمينا و يسارا بمعنى النفي.

و ذهب أيضا إلى أن السبيل لمعرفة أصل اللغة تكمن في دراسة القردة الحاضرة و لغة الطفل، و مقابلة اللغات الشائعة و القديمة لنرى وجه الاتصال بينهما، و مثال على ذلك حسبه أننا نشترك و القردة العليا في لفظة كخ . التي تقال لجزر الطفل عن شيء، و هذه اللفظة موجودة لحد الآن في جميع اللغات، كما لفظتي الأب و الأم هما با و ما اللتان ينطق بهما الطفل في عامه الأول، كما نعرف أن هناك بضعة كلمات يشترك فيها في جميع

[1] كوري جعفر، اللغة و الفكر، مكتبة التومي، الرباط 1971، ص: 57.

[2] مُحَّد صالح بن عمره، الثورة و التكنولوجية و اللغة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986، ص: 07.

[3] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، المصدر السابق، ص: 182.

[4] المصدر نفسه، ص: 182.

أنحاء العالم، انجليزي متحضر أو مصري أو ألماني أو استرالي متوحش، زنوج إفريقيا أو الأوروبيون، وهذا كله يدل على أن اللغات قد تطورت من أصل واحد أو عدة أصول قليلة [1].

إذن هنا يقر شبلي شميل أن اللغة أتت من أصل واحد أو من عدة أصول قليلة مستخدما حججه في الكلمات المشتركة بين الأمم و الكلمات المشتركة و القردة، اعتبر هذا دليل عن أصل اللغة.

كما من أفكار عن أصل هذه اللغة هي النار، حيث اعتبرها عامل قوي في تنشئة اللغات و إيجاد الكلمات، فحسب رأيه كانت تجمع النساء حولها فيأخذن في القيل و القال كما هو شأنهن الآن، و كانت النار تجعل السهر في الليل ممكنا و عند إذن لا يمكن التفاهم بالإشارات فيصبح اختراع الكلمات ضرورة لازمة[2].

أي أن النار هي عامل قوي في تنشئة اللغة، لأن الإنسان في ذلك الوقت كان يعمل في النهار كل في عمله، فيقل الاحتكاك بينهم و بذلك يقل التواصل، إلا أن النار جعلت من الليل وقتا ملائما للتجمع و التواصل، و أيضا هم كانوا يحتاجون إلى الضوء لرؤية بعضهم، لكن الضوء الذي تنتجه النار لم يكن كافيا لهم للتواصل بالإشارات لذلك كان يجب أن يخترعوا الألفاظ و الكلمات للتواصل.

و أيضا بحسبه فإن للغة أثر كبير في زيادة فهم الإنسان، لأنه يوجد تفاهم دائم بين اللسان و الدماغ و هذا التفاهم يتحدد في المعنى، و يتضح هذا المعنى إذا أحسن اللسان التعبير عنه باللفظ، وهكذا كانت اللغة إحدى وسائل سيادة الإنسان و بها نشأت الثقافة البشرية، لأنه اعتبرها تعود إلى الاجتماع و الإنتاج المشترك، فلو أن الإنسان كان يعيش منفردا لما احتاج إلى اللغة، فبالنسبة له أن الإنسان حين ترك الإقامة على الشجر و صار يجتمع من أقرانه للصيد صار يتفاهم مع هؤلاء الأقران بالإشارة أولا و باللغة ثانيا.

[1] سلامة موسى، نظرية التطور وأصل الإنسان، المصدر السابق، ص: 182.

[2] المصدر نفسه، ص: 183.

4) **إنسان المستقبل:**

بالنسبة لشبلي شميل فإن الإنسان وقت بداوته كان خاضعا لمنازع البقاء، يستأصل منه ضعيف الجسم أو العقل أو العاطفة، و يعمل الاستئصال لرقيه، ثم طرأت الحضارة عليه فسهلت عيشة الكثيرين من البشر اللذين كانوا مقضيا عليهم لو أنهم كانوا يعيشون بغير وسائل الزراعة التي يسرتها لهم الحضارة[1] .

أي أن الحضارة هي التي عرقلت تطور الإنسان حسب رأي شميل لأنه لو لم يتعرف على الزراعة و غيرها من الوسائل التي ساعدته على البقاء لكان قد تطور في جسمه و أصبحت تعديلات فسيولوجية في جسمه ككل وكان قد نتج منه نوع جديد لم يكن يعرف من قبل، فهذه هي وجهة نظر شبلي شميل، حيث قال: وقد كانت وجهة التطور قبل أن يتحضر الإنسان تنحو نحو ترقية جسمه و عقله بإحداث تعديلات فسيولوجية في تركيب أعضاءه حتى يوافق الوسط الذي يعيش فيه على نحو ما يحدث للحيوان و النبات الآن، ولكن عندما بدأ الإنسان يتحضر صار يسيطر هو على الوسط بدلا من أن يخضع له[2] . و يقصد بقوله أن الإنسان من قبل التحضر مثله مثل الحيوانات و النباتات الأخرى فنحن نعرف أن الحيوانات تصارع الطبيعة و بعضها من اجل البقاء و ذلك بالبحث عن المكان الذي تجد فيه الأمان و كذلك المأكل و المشرب، إلا أن الحضارة قد وفرت للإنسان شروط العيش فأصبح يسيطر على الطبيعة في الوقت التي كانت الطبيعة هي التي تسيطر عليه، حيث برى شميل أن هناك فرق كبير بين الحضارة و البداوة فالأخيرة كانت تجعل الإنسان يعيش حالة الحيوانية، فإذا اشتد عله البرد بادت منه أفراد بحكم الانتخاب الطبيعي، و من كان يستطيع المقاومة و العيش هو الذي يكسوه الشعر أكثر من غيره او من كان يقوى لأي سبب آخر على تحمل البرد، فيقول شميل على هذا الإنسان: هو من عاش و أنسل و أورث نسله و صفاته في حين كان يموت غيره[3] أما الحضارة حمت الإنسان من البرد و شدته و قسوته و ذلك بإنشاء منزل يأوي إليه و ملابس ساخنة لا يستطيع البرد إلى جسمه إذا ارتداها.

وقد اهتدى شميل إلى أن الحضارة أعاقت الحضارة لكن لم نعقها بشكل كامل إذ لا يزال تنازع البقاء يقتل منا أفرادا بالسجن و التشريد و المرض و البله و يبقي على أفراد آخرين[4].

---

[1] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، المصدر السابق، ص: 214.

[2] المصدر نفسه، ص: 215.

[3] المصدر نفسه، ص: 215.

[4] المصدر نفسه، ص: 214.

كما تحدث أيضا عن حالة الوجدان (الوعي) و يعتبرها حالة جديدة في الإنسان و أيضا يتميز بها الإنسان عن الحيوان، فهي تشعرنا بوجودنا الشخصي، و هذا الشعور بالوجدان سيخرجنا في المستقبل من حياة الغريزة الإنسانية إلى حياة التعقل و القصد[1] .أي أن الإنسان دائما ما يكون له إحساس أنه أرقى الكائنات و أعلاها ولا يجب أن يزول جنسه لكن دوامه يجب أن يترتب له شروط و من بينها القوة و الذكاء و الجمال ليصل إلى الكمال و هذه الشروط لن تتوفر في حياة الغريزة الإنسانية فقط بل يجب أن تدخل علها القصدية و التعقل، و هنا قدم لنا نظرة عن مستقبل الإنسان حيث قال أن حكومات المستقبل ستعرف قيمة التناسل و تجعل قاعدته القصد لا الغريزة و تقصره على فئة خاصة من الناس تجد فيها ما ترغب في أن تحصل عليه الذريات القادمة.

هذا من ناحية الذكاء و الجسم و الشكل، أما حين يتحدث الشميل عن العواطف فإنسان المستقبل سيختلف عنا اختلافا كبيرا لأن الغرائز ستضعف فيه إلى حد الانعدام تقريبا، فهو لم يعرف الحب أو الغضب أو الخوف.

إذن هو يتناسل عن عقل لا عن غريزة، فكل الناس حسبه في المستقبل سيعمدون إلى القصد في التناسل، فلن يكون التناسل حقا مشروعا لكل إنسان بل يقصر على ذوي الكفايات الجسمية و الخلقية و الذهنية.

حيث يقول: هناك في عصرنا الكثير من الأمم تعمد إلى تعقيم الناقصين في الكفاءات حتى لا يتناسلوا و إن كان هذا التعقيم لا يحول دون زواج و لذلك لا خوف على الإنسان من الحضارة فإن فيها الداء و الدواء[2]، أي أن الإنسان في المستقبل سيكون هو المسئول على الانتخاب الطبيعي لأنه هو من سيحدد شكله و ذكائه و الكائن الذي سيكون عله مستقبلا.

و قد قدم لنا شميل نظره أو توقع عن إنسان المستقبل بعد مئة ألف سنة أو أكثر، هذه الصفات التالية:

1. دماغ كبير و سيصل الإنسان إلى هذه الحال بانتخاب صناعي تعنى به المجتمعات البشرية القادمة لأن زيادة الدماغ تعني زيادة الذكاء و ما يزيد حجم الدماغ هو زيادة في خلايا الدماغ للحصول على أكبر قدر من المعلومات.

2. سيتسع حجم المرأة و يزداد كفلاها بذلك حجما كي يمر الجنين بعد زيادة رأسه دون عائق من ضيق الحوض.

[1] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، المصدر سابق، ص: 215.

[2] المصدر نفسه ، ص: 218.

3. زوال أصابع القدمين باشتباكها و اكتسائها باللحم لأنه لم تعد لنا أية منفعة منها، و هذا بالطبع بعد زوال الأظافر الذي ابتدأ منذ الآن.

4. نقص في حواس السمع والشم واللمس إلى ما يقارب الزوال، بل الشم أوشك أن يزول منا لكن النظر يزداد قوة ودقة.

5. ربما تزول المعدة و القولون و يبقى المعي الصغير فقط للهضم لأننا لن نحتاج إلى خزن الطعام أو نفاية

6. يزول الشعر عن أجسامنا بما في ذلك شعر الرأس و الوجه.

7. ربما يكون التفاهم بين الأشخاص بلغة تلقائية غير منطوقة إلى جانب اللغة المنطوقة في الأقل[1].

[1] سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، المصدر سابق، ص: 219.

ثالثا: آراؤه الفلسفية:

1) نظرته العلمانية:

لقد عرف الشميل في جرأته في طرح فكره المادي وتأييده للداروينية رغم الرفض الذي لاقاه من المجتمع الشرقي، الأمر الذي دفع البعض إلى القول بعلمانية. فالشميل ينظر إلى الدين كظاهرة اجتماعية شأنها شأن الظواهر الأخرى حيث ينطبق عليها مبادئ النشوء والارتقاء، ويعلن رفضه للممارسات الدينية في المجتمعات التي تحد من الحريات ويعتبرها سبب من بين الأسباب التي تحول دون تقدّم المجتمعات وتطورها. بالإضافة إلى أنها تميت الحراك العقلي وتقتله فيمسي جامداً لا حياة فيه غير قادر على تخطي لحظات الجهل والفشل والانحطاط التي تصيبه.

من أبرز الأفكار التي تدلّ على علمانية الشميل:

1. الاشتراكية:

والاشتراكية بالنسبة للشمل هي تطبيق للقانونين اللذين يسير عليهما المجتمع، التكافؤ والتكافل. وهي تعمل على تطبيق قوانين الطبيعة في المجتمع، وهي دعامة للقيم الأخلاقية فيه لما توفره من عدل ومساواة بين الأفراد عبر الاشتراك في العمل والمنفعة على نسبة هذا العمل. فالاشتراكية تؤمن حاجات المجتمع الأساسيّة من مأكل ومشرب وكساء وفق عدد السكان مما يخلق جو من الاستقرار الاجتماعي. فهي الحل الأمثل لمسألة الظلم اللاحق بالإنسان لما توفره من فرص عمل تراعي المقدرة والكفاءة والتي نؤدي إلى إنقاذ الإنسان من استعباد المال والأفراد و ضمانة حقوقهم المغتصبة.[1]

2. فصل الدين عن الدولة:

يرى الشميل في النظام الجمهوري الحكم الأمثل في المستقبل فهو يقوم على مبادئ الديمقراطيّة والحرية الفردية والمساواة والعدالةو يعلن رفضه الشديد للحكم الملكي الجائر، الذي يستمدّ قوته من السلطة الدينيّة الداعمة والمشجعة له. و في نظره أنّه مع النظام الجمهوري سيكون مصير الشعور الديني إلى الزوال لأنه ينشأ عن خوف الإنسان وضعفه أمام سلطة الدين العمياء لذا نجد الشميل يدعو دعوة صريحة لفصل الدين عن الدولة.

3. العلم هو الدين الحقيقي:

من الأسباب التي تدفع بالإنسان إلى الإيمان بقوة خارقة للطبيعة محركة لها هو الخوف من المجهول، وجهله لما تكشفه العلوم من حقائق في الكون، ومع العلم سيتمكن الإنسان من ترك الإيمان في كل ما هو غير طبيعي

[1] الشميل شبلي، المجموعة، ج2، المصدر السابق، ص ص: 153، 184.

وغير واقعي، وتتأكّد لديه فكرة تسلسل الكائنات ونسبتها بعضها إلى بعض، ويدرك ما خلفته العصبيّات الدينية من أخطار هددت مسيرة التقدم[1]

فيحل دين العلم في مكان الديانات القديمة، فالعلم أساس التطور في المجتمع لذا يجب أن نؤمن به ولا ندين بدين غيره.

4. تعارض الدين مع الحريّة الإنسانية:

حيث أن الدين يؤدي دور المقيد لحريّة الإنسان الفكرية مما يسبب له الشقاء، يقول الشميل: "ولو لم يكن في الديانات سوى تقييد حرية الفكر لكفى أن تكون علّة شقاء الإنسان".[2]

فالدين يخلق للإنسان فكرة الأرواح فيجد نفسه محاطاً بها تراه ولا يراها فكيف له أن يعمل بحرية، وهو يسعى إلى التقرّب منها ونيل رضاها[3].

إذن فالشميل يدعو إلى تحرير العقل من السلطة الدينية لما يراه في هذه الحرية من فوائد فردية وجماعية مؤكدة.

[1] شبلي شميل، فلسفة النشوء و الارتقاء، المصدر السابق، ص: 404.

[2] شبلي شميل، المجموعة، ج1، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، مصر، 2017م، ص: 53.

[3] المصدر نفسه، ص: 52.

2) نظرته للجنسين، تفسير المساواة وفق العلم الطبيعي:

تعد قضية الحرية و المساواة عند شبلي شميل من القضايا الحساسة التي دعا إليها و هادم سياسة المستبدين و رفض الاستغلال، ولكن رغم كل هذا فشبلي شميل يقف موقف سلبي من فكرة المساواة بين الرجل و المرأة، وهو موقف غريب و يصمم على رفض هذه المساواة و ينطلق من حجج غريبة.

أولا ينظر إليه في الأنواع ـ أنواع الحيوان المختلفة ـ فبالنسبة له حيوان الأنثى أشد من الذكر في الحيوانات السافلة و أضعف منه في الحيوانات العالية، فمثلا أنثى النحل و الفراش و الكثير من الأسلاك و الحشرات اشد من الذكر و تعتبر من الحيوانات المنحطة في سلم النشوء، عكس أنثى الكير و الحيوانات اللبونة و سائر ذوات الفقر العالية أضعف منه غالبا و تكون من الحيوانات المرتقية، حيث حجته في ذلك أن الطيور و الحيوانات اللبونة يكون فيها الذكر أقوى من الأنثى، و ذلك بسبب أن الذكر فيه الكريات الحمراء الصالحة للتغذية أكثر مما فيها.[1] و تتوالى حجج شبلي شميل الغريبة على أن المرأة غير مساوية للرجل، بحجة أن الرجل يأكل أكثر من المرأة ولكنها أنهم منه، أي أنها شرهة أكثر منه، فالذكر يتنفس أكثر من الأنثى، و رئته تسع الهواء أكثر من المرأة و يتناول من الأوكسجين المطهر للدم أكثر منها و إن كانت تتنفس أكثر منه، و حرارته أكثر من حرارتها، مثل حرارة الديك بالنسبة للدجاجة، و نبضه أبطء من نبضها، وعظام المرأة أخف من عظام الرجل، و يستعمل الرجل يمناه أكثر من المرأة و المرأة تستعمل يسراها أكثر من الرجل[2]وقدم المرأة أكثر انبساط و أقل تحدبا من قدم الرجل يدل على الانحطاط.

و في ذلك كان استفزازا للمرأة، فتها طلت الردود على مقاله في المرأة و الرجل و هل يستويان، حيث ردت السيدة رحيل محار من القاهرة قائلة في ردها على أن الرجل يأكل أكثر من المرأة و لكنها أنهم منه بسؤالها الساخر عن المقياس العلمي الذي قاسوا به نهامة الرجل و المرأة حتى عرفوا أنها أنهم منه[3]

كذلك بالنسبة له فإن دماغ الرجل أثقل من دماغ الأنثى، مستندا إلى دماغ ذكر الغوريلا وهو نوع من القرود يزن 540غرام و دماغ الأنثى 470غرام، مسقطا ذلك على الإنسان بأن وزن دماغ الرجل 1323غرام و المرأة 1210 و الفرق 113غرام.

[1] شبلي شميل، مباحث علمية واجتماعية، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، مصر، ص: 105.

[2] المصدر نفسه، ص: 106.

[3] د/ جابر عصور، استراحة البيان، المعركة الأولى للمساواة، 21 يونيو.

حيث استند إلى إجماع الأنثروبولوجيين أن مقدم الدماغ، الذي هو مقر القوى العاقلة الرفيعة أصغر في المرأة منه في الرجل، سواء هذبا أو كانا على الفطرة، و مؤخر الدماغ الذي فيه مركز العواطف أكبر في المرأة منه في الرجل.[1]

و في ذلك ردت مريم ماركيوس في أن يكون الرجل أعظم عقلا و إدراكا من المرأة كما يزعم الشميل، و تقول أن الباحثين المنصفين لم ينكروا ذكاء و العقل في المرأة، و إذا كان الشميل ذهب إلى أن ثقل الدماغ دليل قاطع على كبر العقل، فإن كبر العقل بمعزل عن ثقل الدماغ فيما يقول علماء كثيرون[2]. هذا من الجانب الفيزيولوجي.

أما من الجانب الأدبي فد ذهب شبلي شميل إلى أن هناك من يطرح التساؤلات حول إن كانت المرأة أنبل خلقا من الرجل أم لا، و توجد مؤلفات كثيرة في مدح المرأة و ذمها.

فمن حججه التاريخية و في العصور الوسطى اعتقد أن المرأة ليس لها نفس، رأيه فاحتقار المرأة في هذا العصر لم يبلغه أي عصر آخر، و هو حال الحكماء و الفلاسفة المتقدمين كأمثال سقراط و أرسطو على أن المرأة أحط من الرجل.

و من المقرر له هو أن المتفق عليه هو أن المرأة أقل ارتكاب للجرائم من الرجل، مستندا بقول كوالتيت: و الذي يمنعها من ذلك هو خجلها و حياؤها و حالها من الرضوخ و عوائدها التي تحجبها و ضعف جسدها[3]، أي أن الحائل من ارتكاب الجرائم هو الحياء و الخجل، لكن بهذا القول أتساءل حول إذا كان الرجل أقل حياء أو منعدم الحياء لذلك تسول له نفسه الإجرام.

كما قال غيره إن التسمم الذي هو سلاح الجبناء هو في الغالب سلاحها، و هي أحيل من الرجل و أخدع منه، و الحيلة و الخداع سلاح الضعيف، إن استقوتك استعطفتك ببكائها و إن استضعفتك قتلتك بكبريائها[4]. وهو ما يرفضه العقل، فما هو الدليل العلمي على ذلك.

أما من الجانب السيكولوجي، فإن شميل يقرر أن القوى العاقلة تابعة لحالة الدماغ، و هذه الحالة تبين أن الذكر أعقل من الأنثى، ذلك بإجماع الحكماء و الطبيعيين، حيث يذهب إلى أن جميع الشرائع اتفقت على أن تعامل المرأة معاملة القاصر المحتاج إلى الوصي، بسبب خفتها و طيشها. إلا أن الذين يدعون إلى المساواة

[1] شبلي شميل، مباحث علمية و اجتماعية، المصدر السابق، ص: 106.

[2] د/جابر عصور، استراحة البيان، مرجع سابق.

[3] شبلي شميل، مباحث علمية و اجتماعية، المصدر السابق، ص: 107.

[4] المصدر نفسه، ص: 107.

انتقدوا هذه الشرائع بأنها جعلت من المرأة ضحية للرجل، و هو ما أتت به سيمون ديبوفوار في كتابها الجنس الآخر أن المرأة دمية بيد الرجل يطلبها عند الحاجة و يجب أن تكون له امة لشهواته و متطلباته، و منصتة لأحاديثه و مشاكله و حتى لتفاهاته.

لكن شميل له عكس هذا الرأي، مبررا بذلك أن حتى رجال الأخلاق وصفوا المرأة بأنها لاهية متقلبة أكثر من الرجل و أنها مطبوعة بالخرافات و متمسكة بالعادات القديمة أكثر من الرجل حيث يستند إلى قول بروكا العالم الأنثروبولوجي إلى أن المرأة أقل إدراكا من الرجل. و استند أيضا إلى قول ديلوني: إذا قيست المرأة بالرجل في أوروبا وجدت متأخرة عنه نحو قرن، حينما الرجل يشتغل بالتاريخ و الفلسفة تشتغل هي بمطالعة الأقاصيص و كتب الأدب[1]. و كما نعلم أن الشميل ينتقد مطالعة كتب الأدب و الأقاصيص ضنا منه أنها معطلة لتقدم و تطور الإنسان.

و من حججه أيضا أننا لو نضرنا إلى الفروع البشرية نجد أن المرأة تنحط عن الرجل كلما كان الإنسان أعرق حضاريا و مدنيا، و تساويه و ترتفع مكانتها عنه كلما كانت أقرب إلى البداوة و الخشونة جسديا و عقليا، مستندا في حجته هذه إلى بستيان الذي حكا في رحلته أن النساء في همج إفريقيا أشد من الرجال، و أنهن يسدن عليهم و يحاربن نظيرهم و حكا فولي أن المرأة تسود على العائلة في بعض قبائل السود حتى أنها تضرب الرجل[2]. أي أن المرأة في نظر شبلي شميل كلما كانت قوية ذات سلطة كان المجتمع الذي تعيش فيه منحط، و كلما كانت ضعيفة جسديا و عقليا كلما كان المجتمع الذي تعيش في متحضر و قوي، و هذا ما لا يتماشى مع العقل و المنطق، فقد كان من التاريخ من الحضارات المتطورة و المتحضرة ما حكمت فيه النساء كأمثال كليوباترا و زنوبيا و إليزابيث و غيرهن....

كذلك من الحجج التي قدمها شبلي شميل، أن هناك فرق بين سعة جمجمة المرأة و الرجل، فهو سبعة و ثلاثون سنتمترا مكعبا من جانب الرجل لأهالي أستراليا و تسعة و خمسون لأهالي الصين، و مئة وتسعة و أربعون لقبائل الإسكيمو و مائتان و ثلاثة لسكان بريطانيا، هذا الفرق من جانب الرجل يكون أعظم كلما كان الشعب أرفع.

و عليه فإن شبلي شميل قد قدم أفكاره على صفحات مجلة المقتطف و قدم أطروحة متأثرا بالكشوفات العلمية في زمنه، معتمدا النظرية الداروينية التطورية، فناقش بإسهاب الفروق الجسمية و الفيزيولوجية بين الذكور و

[1] شبلي شميل، مباحث علمية واجتماعية، المصدر السابق، ص: 108.

[2] المصدر نفسه،ص: 109.

الإناث حتى في مملكة الحيوان محاولا أن يجد حلا وسطا بين الأفكار التي تمجد المرأة و تجعلها في مصاف الملائكة بحسب تعبيره و بين الآراء التي تنزلها إلى حضيض البهيمة.

فخلص إلى ضرورة وضع المرأة في مقامها الحقيقي الذي يليق بها. و المكان الذي وضعت فيه عضوا لازما للهيئة الاجتماعية تابعة للرجل في ارتقائه، مساعدة له متممة ما نقص من كماله مخففة عنه مشاق الحياة الداخلية، كما هو يذلل لها مصاعب الحياة الخارجية [1].

و من جانب الإذكار و الإناث، فكان لشبلي شميل آراء أغرب من الغرابة حيث ربط جنس المولود بالغذاء، حيث أن زيادة الغذاء و شدة التغذية سبب تولد الإناث، و قلة الغذاء و ضعف التغذية سبب تولد الذكر، و أعطى مثالا على ذلك من العالم الطبيعي من تجارب دزن و يونغ على دعامين الضفادع بأن الدعامين التي يكثر غذاؤها يغلب تحولها إلى إناث و التي يقل غذاؤها إلى ذكور[2].

و عليه فإن شبلي شميل خلص إلى أن الظروف الخاصة للمرأة جعلتها دون مستوى الرجل فهي بالنهاية تابعة للرجل. وذلك استنادا إلى الحجج والبراهين المختلفة التي قام باستقائها من علوم الطب والاجتماع والحيوان.

[1] تيسير خلف، الحركة النسوية المبكرة في سوريا العثمانية، تجربة هناء كسباني كوراني، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، ص: 89.

[2] شبلي شميل، مباحث علمية و اجتماعية، المصدر السابق، ص153.

3) نظرته في العلم والتعليم:

إذا كانت هذه الآراء العلمية والاجتماعية لا تزال قليلة الشيوع بني الناس، فالسبب كماً قلت في ما تقدم هو قلة انتشار العلم الطبيعي رغما عن ارتفاع شأنه كثريًا اليوم لدى خاصة العلماء وعامتهم.

والذنب في ذلك على المدارس فأكثرها حتى اليوم لا يزال يعلمنا العلوم العقلية الأدبية كما كانت في عهد أرسطو وابن سينا والعلوم الحيوية كما كانت في عهد لينيوسوكوقيه، وقل منها ما يعلم مذهب التحول بعد مائة سنة من اكتشافه وخمسين سنة من ثبوته، والغريب أنها اليوم تجري على قواعد هذا المذهب في تعليم العلوم الكيماوية والفلسفية الطبيعية، وقد تختلس شيئًا منه تطلقه على علومها العقلية الأدبيةَ من دون أن تدري أنها مدينة له بذلك، فإذا درت كما في العلوم الحيوية دفعها جمودها الذي هو من مميزاتها الأولى إلى النفرة منه والانزواء بني دفَّتي كتبها البالية، وهو وإن كان يُعلَّم اليوم في بعض المعاهد العلمية الراقية في أوروبا، ففكرة تعليمه في مدارسنا الشرقية على اختلاف نزعاتها لا تزال أبعد من عنقاء مغرب.

فإذا كان الخوف على الدين هو الذي يمنع المدارس وخاصة المدارس العالية منً تعليم مذهب التحول، فليعلموا أولاً أن هذا المذهب اليوم ليس نظرا فلسفيّا يحتمل الشك بل هو مذهب علمي ثابت أدلته محسوسة لا تقبل النقض، فمهما حاولوا طمسه فإنهم لا يُ فلحون، ولا بد من أن يحتل المدارس احتلالاً دائما في زمن قريب، فليعلِّموه إذن، وليقفواً فيه عند حد العلم البسيط، كما فعلوا بأكثر المذاهب العلمية الكبرى التي حاربوها أولا بحجة الدين ثم عادوا إليها، ولم يجدوا حينئذ أدنى مشقة في تطبيقها على الدين أو تطبيق الدين عليها.

نقول ذلك لأننا لا نريد أن يكون هذا الخوف اليوم سببًا لحرمان التعليم من فوائد هذا المذهب الجمة لجميع فروعه العلمية والأدبية والتاريخية؛ إذ ما من مذهب حتى آراء الدكتور شبلي شميل الآن ظهر بهذا الاتساع شاملا لجميع معارف الإنسان، ونخص بهذا القول مدارسنا عامة، فلعلها تجعله قاعدة تعليمها الثانوي ولا توصد أبوابها دون أرقى العلوم اليوم. ويا ليت الجامعة الجزائرية تكون السابقة إلى ذلك فتجعله أساس تعليمها وهي لا تكون قد أتت بدعة، بل تكون قد حذت بذلك حذو جامعة باريس وجامعة قينا اليومً وأنشأت كذلك تعليما جديدا غير موجود في المدارس الشرقية، ذلك أفضل جدا من اقتصارها على المباحث التي تبحثها والتي يمكن لسواها أن يقوم مقامها فيها، بخلاف مباحث هذا المذهب فإن الإحاطة بها على أسلوب علمي لا تتيسر أينما كان، وهي لو فعلت لوجدت من علماء أوروبا اليوم من لو خطب في الموضوع لخلب العقول وملأها بمعلومات تقترنً اللذة فيها بالفائدة، ولرأت من الجمهور كذلك إقبالاً عظيما جدا على

حضور دروسها، لأن العقول اليوم متعطشة جدا للعلم الصحيح، ولربت منا أيضا رجالاْ أكفاء يخلفونهم في تعليمهم باللغة العربية في وقت قريب، ولأدت فوق ذلك كله خدمة كبرى للبلادَ ذكرت لها ألفشكر.

وحتى لا يكون هناك موانع وهمية من العواطف ينبغي أن نقف في تعليمها حينئذ عند حد العلم البسيط؛ لأن المذهب ككل المذاهب العلمية الكبرى يمكن تجريده بالكلية عن الدين كما تقدم، أقول ذلك نصيحة خالصة لا غاية لي فيها سوى خدمة العلم وخدمةً البلاد معها خدمة حقيقية تدفعها في العمران الراقي شوطاً ا بعيدا، بل ألتمس ذلك منً الجامعة التماسا لمصلحة الأمة الناهضة اليوم والطالبة مهيعا تسري فيه يكون أهدى لهاً وأطلق لحركاتها؛ لأنه لم يقم حتى اليوم أصح وأوسع من هذا المذهب؛ ولأني على يقني تام من أنه سيصبح المحور الذي تدور عليه جميع أعمال الإنسان ومعارفه، لا في المستقبل البعيد بل في القريب الأقرب.

الفصل الثالث

نقد و تقييم لآراء شبلي شميل.

أولا: مغالطات نظرية التطور الشميلية.

ثانيا: المعارضين.

ثالثا: المؤيدين.

تمهيد الفصل:

تناول شبلي شميل موضوع نظرية التطور خاصة بعد الضجة الكبيرة التي أحدثتها هذه النظرية بين معارضين و مؤيدين، منهم من ثار ضدها منمفكرين واغلبهم رجال الدين الذين اعتبروها كفر لأنها ألغت فكرة الخلق التي تقول نحن أبناء ادم وحواء وأننا خلقنا من تراب، ومنهم من وافق أفكارها ومبادئها و أيدها.

و من أجل الكشف عن أهم الاختلافات بين الآراء المؤيدة و الآراء المعارضة لفكر شميل نطرح التساؤل التالي: فما هي أهم النقاط التي اختلف حولها النقاد لفكر الشميل و أبرز الآراء المؤيدة له؟

أولا: مغالطات نظرية التطور الشميلية:

يذهبالشميل في إسقاط مفهوم النشوء والارتقاء إلى أبعد الحدود على نظريته في الكون والمجتمع. مما دفعه إلى الوقوع بالمغالطات والتناقضات في بعض من جوانب فلسفته.

ويمكننا تلخيص هذه المغالطات في:

-1يجعل من التعاون قانون المجتمع الأعلى وينفي وجود الفرد لذاته بل يجعل وجوده مقترن بوجود الأفراد.

-2القول بقانون التكافؤ والتكافل يترتب عليه نتيجة وفحواها أن الاجتماع بين الأفراد حاصل بالجبر لا بالاختيار.

-3يرى الشميل أن المادة أصل الأشياء وتتكوّن عبر التطور والانتقال من حال إلى حال (معادن، نبات، حيوان، إنسان) وهو بذلك يلغي وجود الروح في الكون ويجعل المادة السبب والنتيجة لوجود الأشياء. ومن المعروف أنّ الإنسان كغيره من الكائنات مكوّن من جسد وروح. فكيف للمادة أن تكون ماهية وجود الروح وهذا تناقض.

-4يدعو الفرد إلى رفض السلطة الدينية والتحرر منها لأنها تحدّ من حرّيته ثم يعود فيخضعه لسلطة أخرى وهي سلطة الطبيعة وقوانينها. (التكافؤ والتكافل، الانتخاب، الارتقاء، ...).

-5يدعو إلى الحرية ثمّ يعلن رفضه للعلوم الإنسانية وكل ما ينتج عنها من شرائع ويحولها إلى علوم زائفة، فيرفض كل ما ينتجه الإنسان من أدب، وفلسفة، وفن يعبّر عن فكره وأحاسيسه ويقضي على المنفذ الوحيد الذي يعبّر فيه الإنسان عن إنسانيته.

ثانيا: المعارضين:

لقدشهد تاريخ مصر الكثير من المعارك الفكرية والأدبية بين دعاة العلم ودعاة التخلف، وبين دعاةالتقليد ودعاة التطور والحداثة. وفي العام 1876م نشبت إحدى هذه المعارك الضارية، التي بدأت كما يقول الدكتور الناقد رفعت السعيد، بمقال نشر في جريدة "المقتطف" حول دوران الأرض، أكد فيه كاتبه اللبناني يعقوب صزوف أن: موضوع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس صار أشهر من نار على علم، وأوضح من الصبح لذي عينين، وتحققت لكل ذي عقل سليم يطالع ويفهم[1]."

و لقدكان الدكتور شميل يؤمن بالعلم، وبالعلوم الطبيعية بالذات. ويطمح إلى أن يرى كل شيء في المجتمع، يسير دقيقا في دقة القوانين الطبيعية، حاسما في المعادلات الرياضية. ولقد أثر ذلك كثيرا على كتابه.

و منهاانفجرت معركته الكبرى لدى صدور كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء"، وهو ترجمة لكتاب بخنر ستة مقالات حول نظرية تشارلز داروين، وثار عليه أخلصأصدقائه ناهيك عن أعدائه الفكريين. وقد علق الشميل على هذه الثورة ضده بالقول: "أحدث نشر هذا الكتاب لغطا عظيما مع انه لم تطبع منه إلاخمسمائة نسخة، لم تنفذ إلا بعد خمس عشر سنة .هذا اللغط، قليله من الخاصة المعدودة، فقاموا ينفونه كله أو بعضه كل على قدر علمه أو حسب هواه. وكثير من العامة الذين أكثروا من الجلبة عن سماع لا عن مطالعة لأنهم سمعوا إن فيه مساسا بأعز شيء لديهم هم عليه حريصون عن ارث وعادة، لا عن تدبر وروية ."وواجه شميل الإعصار وحده. حتى أن أصدقاءه ومؤيديه أحجموا عن مناصرته، ويتحدث عنهم قائلا عندما طالبتهم أن يؤيدوني بكتاباتهم في الجرائد خدمة لامتهم، أحجموا، فعلمت أن الحرية فيهم لم تتجاوز حدود الفكر، ولم تصل بهم إلى القول[2]".

[1] علي المهرج، نظرية التطور و أثرها في الفكر العربي الحديث، صحيفة المثقف، العدد5738، بتاريخ 2022/05/22.

[2] المرجع نفسه.

- **إسماعيل مظهر:**

و بداية من أهم معارضي شبلي شميل المفكر إسماعيل مظهر، فقد انتقد شبلي شميل في كثير من رؤاه ومُتبنياته، فقد عارضه في نقده للأدب "خطابة وشعر وموسيقى وقصة ورواية"، بل وحتى في رأيه بالفلسفة والميتافيزيقا، لأننا نستمد منهما نوعنا الأخلاقي الإنساني، لأن هذه الفنون هي من تدفع الإنسانباتجاه البناء الأخلاقي والروحي بوصفهما محركات للفكر كي يتطلع إلى ما وراء المنظور، "فلكل أمة روحاً أدبية تظهر متجلية في كل دور من أدوار نشؤها وتطورها، فالعلوم الأدبية ربيبة الفكر الإنساني...شأنها في ذلك شأن العلوم الطبيعية، ومحاولة إنكارها في الحقيقة إنكار لجهود الإنسانية طوال قرون عديدة ". وهنا نجد أن إسماعيل مظهر على النقيض من شبلي شميل فالآداب برأيه أساس العمران ومرجع الفضائل والإنسان يحتاجها كما يحتاج العلوم الطبيعية و"الإنسان بطبعه متوثب إلىاستيعاب المعاني الخفية...إن المعاني الأدبية وحب الجمال صفات نفسية ثابتة وأنها الباعث على الانصراف إلى العلوم والخيال الذي كثيراً ما ينقلب إلى منطلق صحيح والفرض الذي كثيراً ما يصبح حقيقة واقعة"، و "الفضيلة هي ثمرة العلوم العقلية والآداب حرز المدينة وسياج الرُقي العُمراني"[1] أما من الجانب الديني فموقف شميل هو الرفض لكن مظهر و إن كان يتفق معه في أن الإنسان كائن اجتماعي، إلا أنه لا يتفق معه في الموقف من الدين إذ يرى أن الإنسان كان معتقد بفطرته، أي أنه ذو عقيدة بصحة شيء و بطلان ما ينافيه، فالاعتقاد الفطري كما يرى مظهر تكأة الدين كما أن الخوف و الجهل منشؤه، و الجهل بأسباب حوادث الطبيعة يدفع باتجاه بناء معتقد إزاء كل حادث من حوادثها و أصل الدين ظاهرة مرتكزة على الاعتقاد و هو ضرورة من ضرورات الاعتقاد[2].

لذلك يرى مظهر في الدين قوة مؤلفة بين عقلية الفرد الأنانية و عقلية الجماعة و مطامعهم لصالح الكل الاجتماعي و أن الدين في ذاته ضرب من ضروب المعتقد الديني يهيئ الإنسان بوازع مما بعد عقليته يضبط سلوكه نحو المجمول إذا تعارضت مصلحة الفرد و مصلحة الجماعة[3].

من هنا يتبين لنا أن مظهر يتعامل مع الدين بوصفه ظاهرة اجتماعية صرفة بعيدا عن أبعاده الغيبية و اللاهوتية و هو ضرورة من ضروريات الفكر الإنساني و جزء أساسي من طبيعة الوجود البشري لذلك نجد مظهر يعطي أولوية للدين بوصفه شريعة أدبية و يهمل فكرة أن الدين قائم على الاعتقاد بقوة مدبرة حكيمة عاقلة لا تدرك

[1] إسماعيل مظهر، ملقى السبيل في مذهب النشوء و الارتقاء، المرجع السابق، ص: 23.
[2] المرجع نفسه، ص: 41.
[3] المرجع نفسه، ص ص: 52 53.

حقيقتها العقول البشرية، و يرى أن هذه الفكرة ليست هي جوهر الدين، و إنما جوهره مثل ما ذكرنا سابقا التمييز بين الخير و الشر و تنمية القوة المؤتلفة التي تقوي الصلة بين الفرد و الجماعة.

- **جمال الدين الأفغاني:**

يتصدر جمال الدين الأفغاني قائمة المعارضين لنظرية التطور من بين مفكري الإسلام المعاصرين فقد كان رفضه قاطعا للنظرية مثل ما كان الحال مع مُحَمَّد فريد وجدي، صاحب موسوعة دائرة معارف القرن العشرين و الأستاذ أنور الجندي و كان الموقف الرافض لهؤلاء واضحا عكس البعض ممن حاولوا التوفيق بين ما ورد في التراث الإسلامي و القرآن الكريم، أمثال عباس محمود العقاد و الشيخ أمين الخولي و الشيخ حسين الجسر.

حيث أنه يرى أن الدكتور شبلي شميل قد تخلص في جرأته الأدبية و بعض رسوخه في الفلسفة من وصمت التقليد الأعمى لعلماء الغرب، و بمعنى أوضح أنه أراد أن ينتصر لداروين و أن ينشر مذهبه رغم أهل الأديان و في ذات الوقت عارض أستاذه و صاحب المذهب المنقاد له[1]

ففي كتابه "الرد على الدهريين"، والذي نشر لأول مرة بالفارسية في عام 1878 ثم بالعربية في 1885، شن جمال الدين الأفغاني (1838-1897 م) هجوماً حاداً على نظرية داروين، وحاول تقديمها على أنها مجموعة من الادعاءات غير العلمية المفتقدة للمنطق. يقول الأفغاني عن داروين: "وقد ألف كتاباً في بيان أن الإنسان كان قرداً، ثم عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تتالي القرون المتطاولة وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ (أوروانأوتان) ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الإنسان.. وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثاً كذلك"[2]. وهذا القول يدل على عدم فهم الأفغاني لنظرية داروين بشكل صحيح، وأن هجومه كان مجرد اندفاع عاطفي تجاه كل من يخالفونه في المعتقد والأفكار الفلسفية والاجتماعية والسياسية.

- **الشيخ حسين الجسر:**

كان الشيخ اللبناني حسين الجسر (1845-1909 م) من أوائل المفكرين الإسلاميين الذين وضعوا مؤلفاً يتناول نظرية التطور، والذي جاء تحت عنوان "الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية"، وعلى الرغم من المقالات التي ضمها الكتاب لشرح طبيعة الخلق المنفرد للمخلوقات الحية، لم يقف الجسر موقفاً معارضاً من نظرية التطور، فقد رأى أن نظرية داروين، في حال إثباتها علمياً، لا يتناقض مع

[1] هيثم طلعت، 40 خطأ في نظرية التطور أخطاء لا يريدونك أن تعرفها، ص 13.

[2] جمال الدين الأفغاني، الرد على الدهرين، تر مُحَمَّد عبده، المطبعة الحمودية التجارية، مصر، سنة 1935، ص: 125.

الاعتقاد في وجود الله، وأن الإسلام يمكن التوفيق بينه وبين العقلانية والعلوم الطبيعية، وأنه يمكن تأويل النص القرآني الخاص بالخلق فقط عندما تثبت صحة نظرية داروين علميا بما لا يدع مجالا للشك.

و يرى أن نظرية التطور لا تزال نظرية مختلفا في صحتها و لم تقم عليها الدلائل القاطعة التي من شأنها أن تحملنا على تأويل ظاهر النصوص المنزلة، لكن متى قامت الدلائل جاز القول بها، ووجب تأويل النصوص و التوفيق بينها و بين ما قام عليه الدليل القاطع.[1]

فمعارضة الجسر هنا تكمن في أنه يمكن تأويل نظرية التطور بما يتوافق مع القرآن الكريم و هذا ما جاء بنقيضه الشميل حيث يرى أن النظرية الداروينية نظرية علمية بحتة و لا تتوافق مع القرآن أو أي تشريع.

- **عباس محمود العقاد:**

من جانبه، دعا المفكر المصري عباس محمود العقاد (1889-1964 م) إلى عدم الاستناد إلى القرآن الكريم في إنكار مذهب التطور. يقول العقاد في الجزء الرابع من "موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية" إن "الذين أنكروا مذهب التطور يحق لهم أن ينكروه من عند أنفسهم، لأنهم لم يطمئنوا إلى براهينه ودعاواه، ولكنهم لا يجوز لهم أن ينكروه استناداً إلى القرآن الكريم، لأنهم لا يملكون أن يفسروا خلق السلالة الآدمية من الطين على نحو واحد يمنعون ما عداه، وكل ما يجوز لهم أن يوجبوا الإيمان بأن الله تعالى سوى الطين وبث فيه روح الحياة، فصنع منه السلالة التي نشأ منها آدم عليه السلام، فأما أن يحتموا كيفية التسوية، وكيفية النفخ، وكيفية خلق السلالة والزمن الذي خلقت فيه، فهو ادعاء على القرآن، لا يقبل منهم على وجه من وجوه النفي أو الإثبات".

المعارضون للنظرية ودعاة التوافق مع الإسلام.

- **أصحاب الخلق:**

نذكر نقدهم في عدة نقاط هي:

- هناك إمكانية لحدوث المادة.
- إمكانية حدوث المادة هي من باب العلم العقلي (الفلسفة).
- القول بالجوهر الفرد لم يدركه العقل.
- كيف يمكن التسليم بأزلية المادة بلا برهان سوى أنها مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ.
- لا بد للموجود من موجد إذ لا يستطيع أن يوجد نفسه وهكذا حال المادة.

[1] ندين الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم و القرآن، دار الكتب العلمية، لبنان، ص: 209.

- النظام في الوجود يدل على القصد فلا بد إذن من مدرك والمادة غير عاقلة.
- كيف يمكن للمادة المتماثلة أن تظهر بصورة مختلفة.
- القوة واحدة ولكن تحولها لا يمكن أن يتم بغير العناصر المختلفة بينما المادة متماثلة.[1]

[1] مجدي عبد الحافظ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2008، ص ص: 64.63.

ثالثا: المؤيدين:

- **سلامة موسى:**

آمن الكاتب المصري الراحل سلامة موسى (1887-1958 م) إيمانا راسخا بنظرية التطور، وقد أخذ على عاتقه تأييد النظرية وتبسيطها ومحاولة إثباتها في العديد من المؤلفات المبسطة، منها ثلاثة كتب هي "نظرية التطور وأصل الإنسان" و"الإنسان قمة التطور" و"مقدمة السوبرمان"، فضلاعن الكثير من المقالات في الصحف والمجلات. وأثرت نظرية التطور في سلامة موسى تأثيرا جذريا، واتسع مفهومه لها ليشمل تطور الفرد والمجتمعات، فكما يقول في مقدمة كتابه الإنسان قمة التطور: "ولسنا نقصد من التأليف عن التطور أن يعرف جمهور القراء حقائق هذه النظرية فحسب؛ لأننا إنما نتوسل بهذه النظرية إلى أن نعمم مزاجا ذهنيا، واتجاها نفسيا، وخطة اجتماعية، نحو التغيير، أي: نحو التطور في الشعب وفي الفرد أيضا."

و من الجانب النهضوي أكد المفكر سلامة موسى على غرار شبلي شميل انه يجب ن أن درك أننا أفسدنا النهضة كما عرفها الفرد الأوربي . الذي عرف النهضة منذ القرن الرابع عشر إلى القرن العشرين أنها تحرير الشخصية البشرية من قيود التقاليد والأمور الغيبيةوالإقبال على العلم التجريبي. وفصل الدين عن الدولة ودعوة للإنسان والفرد كي يفتك مصيره وواقعه بيده ويتسلح على سلطة القدر[1].

وفي مقدمة الطبعة الثانية من كتابه نظرية التطور وأصل الإنسان، يقول موسى: "وكسب آخر كسبناه من هذا المزاج التطوري، هو النظر للمستقبل والجرأة على تخطيطه في حرية تامة من التقاليد والعادات المتحجرة، وأولئك الذين ينفرون من نظرية التطور إنما يفعلون ذلك لإحساس خفي بأن هذه النظرية تحريرية في دلالتها، تفكك الأغلال وتفتح المستقبل للتفكير الجريء."

[1] سلامة موسى، ما هي النهضة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1987، ص251.

- **إسماعيل مظهر:**

عرف إسماعيل مظهر (1891-1962 م) بترجمته لكتاب تشارلز داروين "أصل الأنواع" إلى العربية، في عام 1918، ويرجع ميل إسماعيل مظهر لتبني نظرية التطور إلى دراسته في إنجلترا، مهد النظرية ومنشأ مذهب داروين، خاصة دراسته لعلوم الأحياء التي جعلت من الطبيعي تعرضه للنظرية وتاريخها، في فترة تداخلت أفكار نظرية التطور في معظم الفروع المعرفية والاتجاهات الفكرية على اختلافها. ويحسب لمظهر أنه كان من أوائل من اهتموا بترجمة كتاب "أصل الأنواع"، وقام بترجمته ترجمة علمية رصينة، ووضع بنفسه ترجمات عربية لمصطلحات علمية كثيرة لم تعرفها اللغة العربية من قبل، وربما كان ذلك من أهم أسباب انضمامه لمجمع اللغة العربية بالقاهرة. وتدلل سيرة إسماعيل مظهر على إيمانه بمذهب داروين التطوري، خاصة أنه تفرغ لمدة تزيد عن عشر سنوات من أجل إنهاء مؤلفه "ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء"، والذي يقول في مقدمته: "قضيت ما ينيف على عشر سنوات مكباكل الإكباب على دراسة مذهب العلامة داروين في النشوء والارتقاء. طالعت زبدة المؤلفات التي كتبها، والتي كتبها غيره من جهابذة علماء القرن الماضي في أصل الأنواع وأصل الإنسان وخرجت من مجمل ذلك بمذكرات وتعليقات، إن أردت أن أخرجها في كتاب لأتمت صفحاته بضعة آلاف صفحة". والمثير أنه مع اعتقاد إسماعيل مظهر في مذهب داروين، إلا أنه كان باحثاً صادقاً يتحرى الحيادية، مما جعله يوجه نقداً صريحاً لاثنين من المفكرين، هما الدكتور شبلي شميل والسيد جمال الدين الأفغاني، فكما يقول في مقدمة كتابه: "لما كان لأولهما من الأثر في نشر المذهب الدارويني مشبعاً بالرأي المادي، ولما كان لثانيهما من الأثر في العمل على نقض المذهب، قضاء لمعتقده من أن نشر هذا المذهب قد يفسد من طبيعة الشرقيين وتقاليدهم أكثر مما ينفعهم[1]

[1] أحمد عزمي، لماذا دافع مفكرون عرب عن نظرية داروين في بداية القرن الماضي، مجلة رصيف الإلكترونية، 17 يوليو 2018.

الخاتمة

الخاتمة:

من خلال معالجتنا لموضوع أسس الفلسفية للنظرية التطورية عند شبلي شميل، توصلنا إلى نتائج يمكن حوصلتها كما يلي:

أهم ما يميز شبلي شميل عن باقي البحثين والمفكرين المعاصرين، فكره الفلسفي، حيث أقام فكره على نظرية التطور وجعلها مركز ومحور دراستهوأبحاثه الفلسفية، متأثرا بذلك في بناء فكره بالفلسفة التطورية للعالم والباحث والمفكر الإنجليزي تشارلز داروين والفيلسوف بخنر ولامارك، وهو لم يختص بدراسة النظرية التطورية من جانب الأحياء فقط بل اشتغل عليها من كافة الجوانب والقضايا المتعلقة بها.

تعد نظرية التطور بالنسبة لشبلي شميل مبحث علمي عملي، يكتسب من خلالها الممارسات العملية، فهي قائمة على الاكتشافات العلمية و الحفريات المنقب عليها.

اعتبر شبلي شميل الاشتراكية تطبيقا للقانونين اللذين يسير عليهما المجتمع وهما قانوني التكافؤ والتكافل والذي يقوم على العدل والمساواة بين الأفراد، عبر الاشتراك في العمل والمنفعة التي تعود على نسبة هذا العمل، فبالنسبة له هي الحل الأمثل لمسألة الظلم اللاحق بالإنسان، لأنها توفر له فرص العمل، وتؤمن الحاجات الأساسية للأفراد من مأكل ومشرب وكساء، وإنقاذ الإنسان من الاستعباد والاستغلال وضمان حقوقه المغتصبة.

العلوم الطبيعية بالنسبة للشميل تمثل أم العلوم كافة، ويجب أن تقدم على كل شيء، وهذا راجع إلى ما آلت إليه العلوم الإنسانية وقتها في العالم العربي، ولهذا أراد شميل تطبيق القوانين الطبيعية على المجتمع وعلى قواعد تطوره محاولا استخلاص قوانين من الطبيعة، تطبق بشكل آلي على حركة الإنسانية.

حسب شبلي شميل فأصل الدين أن الإنسان كان يهمه إرضاء شهوته للطعام و شهوته الجنسية، و لم يكن يهتم إلا لهاتين الشهوتين، و يعتقد أن الدين يضع الكائنات و الطبيعة في قبضة إلهية أبدعت الكون في حركته و نظامه، و هذا ما ينتج عنه مصادرة جزء كبير من الحرية، و يعتبره هو المسؤول الأول عن الأنظمة الثيوقراطية، حيث يستغله الحكام لخدمة مصالحهم، و هي المسؤولة عن كل ما لحق الاجتماع البشري من تقهقر و استبداد، و كذلك فكرة الخوف التي جعلت الإنسان يسقط في دوامة التبعية إما للفرد يخافه و يبجله، و إما لإله يحقق له أمنياته و يرجع له وقت الحاجة.

مذهب داروين شرحه يعد بسيطا وباستطاعة كل إنسان أن يدركه، إذا نظر إلى الأشياء كما تعرض له وتأملها بعين العقل، ولا يمكنلكل العامة إدراكه، وأيضا لا يمكن إنكار ما جاء به داروينفي نظريته لأن كل ما جاء به

من الواقع، فالتنازع بين الأحياء يؤدي إلى بقاء البعض وفناء البعض الآخر، لأسباب مناخية مثل مقاومة الحر أو البرد أو الجفاف، ولأسباب فيزيولوجية مثل القوة والذكاء والجمال.

في نظر الشميل الانتخاب الطبيعي ليس فرضيات بدون إثبات، لأن داروين جعله نتيجة المطابقة و التماثل، فبالنسبة له لا يمكن للإنسان العاقل أن يجعل الانتخاب الطبيعي بعد كل هذا فرضية، فهو أساس مذهب داروين، و هو يعتبر من أعظم الأدلة على مذهبه فبدونه يستحيل علينا أن نفهم كيف نفهم أن الحيوانات تغيرت أجسادها على مر السنين، و مبدأ الذي يقول أن البقاء للأصل هو الذي يطلق عليه داروين مصطلح الانتخاب الطبيعي.

نظرية التطور لداروين كانت نقطة الانطلاق لشميل، حيث حاول إسقاطها على البنى السوسيولوجية، فالمجتمع في رأيه ينشأ و يتطور مثل ما ينشأ الجسم الإنساني، كلاهما ينطلق من حال إلى حال و في تحسن مستمر، فالارتقاء يساعد على التخلص من مساوئ كل مرحلة.

بالنسبة له الأنواع الحية لم تخلق بصورة مستقلة عن بعضها البعض و لكنها قد انحدرت عن أنواع أخرى، و على ذلك تبدأ نظرية التطور عند داروين من خلال اختلاف أفراد النوع الواحد.

التطور عند داروين يحدث من خلال ظهور اختلافات فردية بين الكائنات الحية و خاصة التكاثر الذي ينتج عنه صراع شديد من أجل الحياة، و مع ذلك فإن الاختلاف بين الأفراد مفيد لها، و من لديه صفات وراثية قوية فسيكون الفوز لها، و سوف تميل إلى إنتاج ذرية متميزة عن الأجيال السابقة لها.

أتى شميل بالعديد من الأدلة التي استند عليها ليدعم بها النظرية الداروينية من بينها علم التشريح المقارن، الذي يدرس تشابه جميع الحيوانات و ذلك في أن أجسامها مكونة من مادة البروتوبالزما على هيأة خلايا، وهذه الخلايا تتشابه في تركيبها العام في جميع الكائنات الحية، و أيضا الأعضاء الأثرية، و هي الأعضاء التي لم تعد تؤدي أية وظيفة، و علم الأجنة المقارن التي تكون فيه جميع الحيواناتعديدة الخلايا يبدأ تكوينها عند اتحاد الحيوان المنوي بالبويضة، فتكون الخلية ملقحة من الحيوانات، ينتج في النهاية حيوان مشابه للحيوان الذي تكون فيه، وأيضا علم الأحافير و هي ما دفن من بقايا الكائنات الحية في العصور الماضية.

من أهم آراء الشميل في معرفة أصل الإنسان في بدايات ظهوره أنه كان يعيش في الأوهام التي كانت من أعظم أسباب شقائه، وأدت به إلى اعتقادين: أن الأرض مركز الكون وأن الإنسان من أصل سماوي، وعلى هذين الاعتقادين نشأ الإنسان على الاخلاق والعادات، ولكن بسبب التطور الذي وصل له الإنسان عن طريق العلم الطبيعي، الذي كان له الدور الأكبر في معرفة أصل الإنسان، وكشف لنا أسرار البيولوجيا.

الخاتمة:

لا يقصد شميل أن الإنسان ينتسب إلى احد القردة العليا الموجودة الآن، إنما يريد أن يثبت قرابة الإنسان لهذه القردة، و أننا و هي من أصل واحد، و مما لا شك فيه أن لنا عدة أصول و من المرجح أنها اختلطت بنا و تسربت لنا طبائعها، و كذلك البيئة لها دور في ملامحنا فتركت فينا أثرها.

بالنسبة لشميل، موضوع الجماعات البشرية سببه الرئيسي هو الاحتماء من العدو أو لصيد الحيوانات الكبيرة لأن في الاتحاد قوة لا تتاح للفرد.

يعتبر الشميل أن اللغة هي الميزة الوحيدة التي تميز الإنسان عن البهائم، إذ كان كل فرد يحتاج إلى أن يخترع المعاني، يستطيع أن يتواصل بها مع غيره من الأشخاص وأيضا بالنسبة له أن الإنسان لو كان يمشي على أربعة لما استطاع حمل دماغهالثقيل ولم يكن يستطيع أن يخترع الآلات، وأيضا الإشارات لها الشأن المهم في التفاهم، وأيضا يجب دراسة القردة الحاضرة ولغة الأطفال، وكذلك النار عامل مهم في تنشأة اللغة.

الحضارة هي التي عرقلت تطور الإنسان حسب رأي شميل، لأنه لو لم يتعرف على الزراعة و غيرها لكان قد تطور في جسمه، لأن الحضارة قد وفرت للإنسان شروط العيش و قد سيطر على الطبيعة في الوقت الذي كانت الطبيعة هي التي تسيطر عليه.

بالنسبة لشميل فإنه يعتبر أن المرأة أقل مستوى من الرجل، و من حججه أن المرأة تنحط عن الرجل كل ما كان الإنسان اعرق حضاريا و مدنيا، و تساويه و ترتفع مكانتها عنه كلما كانت اقرب إلى البداوة و الخشونة، جسدية و عقليا.

يرى شميل في النظام الجمهوري الحكم المثل في المستقبل، لأنه يقوم على مبادئ الحرية الفردية و الديمقراطية و المساواة و العدالة، و هو يرفض الحكم الملكي لأنه يستمد سلطته من السلطة الدينية.

من أهم مؤيدين الفكر الشميلي حول نظرية التطور سلامة موسى، إسماعيل مظهر، مجلة المقتطف...، دافعوا عن النظرية التطورية و أيدوها في مبادئها، و المعارضون نجد جمال الدين الأفغاني الذي عارضه من الجانب الديني، و إسماعيل مظهر الذي أيده في المبادئ الأساسية و عارضه في كثير من رؤاه و متبنياته، الشيخ حسن الجسر حيث عارضه في أن نظرية التطور تتوافق مع القرآن الكريم، حيث يرى شميل بأنها علمية بحتة جدا و لا تتوافق مع أي تشريع، و غيرهم من المؤيدين.

فهارس البحث

أولا: فهرس المصادر والمراجع.

ثانيا: فهرس الموضوعات.

فهرس المصادر والمراجع

أولا/ المصادر:

1. شبلي شميل، آراء الدكتور شبلي شميل، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، مصر، 2015م.
2. شبلي شميل، الحقيقة، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، مصر، 2019م.
3. شبلي شميل، المأساة الكبرى رواية تشخيصية في الحرب الحاضرة، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، مصر، 2020.
4. شبلي شميل، المجموعة، الجزء الأول، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، مصر، 2017م.
5. شبلي شميل، المجموعة، الجزء الثاني، مطبعة المعارف شارع الفجالة، 1910م مصر.
6. شبلي شميل، فلسفة النشوء و الارتقاء، الطبعة الثانية، دار مارون عبود، القاهرة، مصر، طبعة جديدة، سنة1983م.
7. شبلي شميل، شرح بخنر على مذهب داروين،مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، مصر، 2015م.
8. شبلي شميل، مباحث علمية و اجتماعية،مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، مصر، سنة 2020.

ثانيا/ المراجع:

أ–المراجع باللغة العربية:

1. إسماعيل مظهر، مقدمة أصل الأنواع لداروين،

2. إسماعيل مظهر،ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء، الجزء الأول،دار المقتطفالطبعة الأولى، سنة 1923م، مصر.

3. برايان تشارلز وورث، ديبورا تشارلز وورث، التطور مقدمة قصيرة جدا، ترجمة مُحَمَّد فتحي خضر، مؤسسة الهنداوي التعليم والثقافة، القاهرة، مصر.

4. تيسير خلف، الحركة النسوية المبكرة في سوريا العثمانية تجربة هناء كسباني كوراني ،المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، سوريا.

5. جمال الدين الأفغاني، الرد على الدهريين، ترجمة مُحَمَّد عبدهو عارف أبي تراب، الطبعة الرابعة، المطبعة الحمردية.

6. جوني بيير، داروين الآن، ترجمة عرين حسين، الجامعة العبرية، جفعات رام، القدس، إسرائيل.

7. رفعت السعيد، ثلاثة لبنانيين في القاهرة، الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1 ، 1973.

8. رفعت السعيد، شبلي شميل رائد الفكر العربي في مصر، الطليعة مؤسسة الأهرام، 1969م، القاهرة، مصر.

9. زوق مصباح، سيرة شبلي شميل و ابرز انجازاته، مؤسسة الفكر اللبناني، جامعة السيدة لويزة، لبنان.

10. زينب عبد الرحمان، نظرية التطور في الفكر العربي الحديث، دار مصر العربية، مصر.

11. علي عجيل مهند و مكي حبيب المومن، من طلائع يقظة الأمة العربية، دار الرشيد للنشر، مصر.

12. سلامة موسى، نظرية التطور و أصل الإنسان، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، مصر.

13. سلامة موسى، ما هي النهضة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1987، الجزائر.

14. الشيخ مرتضى فرج، الداروينية العتبة العباسية المقدسة ، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، الطبعة الأولى، 2017.
15. كوري جعفر، اللغة و الفكر،مكتبة التومي، 1991م، الرباط.
16. مجدي عبد الحافظ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل، المجلس الأعلى للثقافة، 2008م، مصر.
17. محجوب عبيد طه، تصوران للوجود،
18. مُحَمَّد صالح بن عمره، الثورة والتكنولوجيا واللغة، دار الشؤون الثقافية، 1986م، بغداد.
19. نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة و العلم و القرآن، دار الكتب العلمية، لبنان.
20. هيثم طلعت، 40 خطأ في نظرية التطور أخطاء لا يريدونك أن تعرفها.

ثالثا/ المعاجم والموسوعات:

1. **أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت–باريس.**
2. **جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.**

رابعا/ المجلات:

1. أحمد عزمي، لماذا دافع مفكرون عرب عن نظرية داروين في بداية القرن الماضي، مجلة رصيف الإلكترونية، 17 يوليو 2018.
2. علي المهرج، نظرية التطور و أثرها في الفكر العربي الحديث، صحيفة المثقف، العدد5738، بتاريخ 2022/05/22.

خامسا/ المواقع الالكترونية:

1. موقع الفراشة، لتصنيف العرب، متاح على الخط bettefly.com بتاريخ: 2022/05/14، على الساعة: 17:22.
2. كتابات شبلي شميل، متاح على الخط www.noor-book.comK، بتاريخ : 38/03/2022، على الساعة: 21:50.

فهرس الموضوعات

العناوين	الصفحة
المقدمة.	04-01
الفصل الأول: شبلي شميل فلسفته وحياته.	21-05
أولا: حياته.	07
ثانيا: آثاره.	10
ثالثا: فلسفته.	14
النظرة العلمية، العلم الطبيعي.	14
العلم الطبيعي والدين.	18
الفصل الثاني: نظرية النشوء والارتقاء عند شبلي شميل.	57-22
أولا: شرحه لنظرية النشوء والارتقاء.	24
شرحه لداروين	24
ثانيا: آراؤه في العلم الطبيعي.	34
أ) الزيولوجيا، علم الحيوان وفق النظرية التطورية.	34
ب) الأنثروبولوجيا، علم الإنسان وفق النظرية التطورية.	38
ثالثا: آراؤه الفلسفية.	50
نظرته العلمانية.	50
نظرته للجنسين، تفسير المساواة وفق العلم الطبيعي.	52
نظرته في العلم والتعليم.	56
الفصل الثالث: نقد وتقييم لآراء الدكتور شبلي شميل.	67-58
أولا: مغالطات نظرية التطور الشميلية.	60
ثانيا: المعارضين.	61

فهارس البحث:

ثالثا: المؤيدين.	66
الخاتمة.	68
فهارس البحث:	72
أولا: فهرس المصادر والمراجع.	73
ثانيا: فهرس الموضوعات.	79
الملخص.	80

الملخص:

تناولنا في هذا البحث فلسفة التطور في إطارها العام ومن وجهة نظر شبلي شميل خاصة، واخترنا هذا الموضوع لأنه من المواضيع المعاصرة التي تطرح قضايا العصر من تطور للكائنات الحية وكيفية صراعها من أجل البقاء وذلك بارتقاء الأفضل وتلاشي الأضعف... مما جعلنا نحلل أفكاره للكشف عن الجديد الذي قدمه وعن موقفه نحو هذه القضايا، من خلال كتبه ومؤلفاته وما قدمه في مسيرته العلمية التي شرح فيها موقفه من النظرية التطورية من الجانبين الزيولوجي و الانثربولوجي والمادية والاشتراكية وخاصة موقفه من الدين.

Abstract:

In this research, we dealt with the philosophy of evolution in itsgeneralframework and from the point of view of ShibliShamil in particular. He made us analyz his ideas to reveal the new thathepresented and his position towardsthese issues, throughhis books and writings, and whathepresented in hisscientificcareer, in whichheexplainedhis position on the evolutionarytheoryfrom the sidelines of zoology, anthropology, materialism and socialism, especiallyhis position on religion.

Résumé :

Dans cette recherche, nous avons abordé la philosophie de l'évolution dans son cadre général et du point de vue de Shibli Shamil en particulier .Il nous a fait analyser ses idées pour révéler la nouveauté qu'il présentait et sa position face à ces questions, à travers ses livres. et écrits, et ce qu'il a présenté dans sa carrière scientifique, dans lequel il a expliqué sa position sur la théorie de l'évolution en marge de la zoologie, de l'anthropologie, du matérialisme et du socialisme, en particulier sa position sur la religion.